



دماء وطين

مع ثلاث قصص جديدة

Bibliotheca Alexandrina
0147578

مؤلفات يحيى حقي

يحيى حقى

القصص ٣

دماء وطين

مع ثلاث قصص جديدة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

مقدمة

لاأزال أذكر كيف كانت حارتنا الضائعة وسط القاهرة تستيقظ فجأة ذات صباح من سباتها وغفلتها على نداء غريب يتردد فى أرجائها، لانسمعه إلا مرة كل عام ، ولا نفهم معناه :

عوف الله . . عوف الله . .

« يزعم البعض أنه تحريف لاسم أوفيليا إلهة الماء عند الإغريق » فنعلم أن النيل قد وفى بوعده وفاض بالخير والبركات على الوادى السعيد ، وتنبعث فينا نحن صبية المدينة – ولاشأن لنا بالزرع والرى – هزة فرح لانعرف سببها، ونجرى إلى الجسور نحتفل بهذا

الموج الأحمر الداكن الذى يشع بالحياة والقوة ، يتدفق فى خيلاء وعنف إلى البحر البعيد .

ويتقدم العمر ، ويزول سحر الأساطير ، وينتعش الإحساس الفطرى ، فإذا بنا — مع ذلك — كلما وقفنا على الجسور وتطلعنا إلى الجنوب ، أحسسنا بأن أرواحا وقوى مبهمة تهب علينا مع مياه النيل . وكنا نجد تفسيرها إذا مررنا — والليل قد مضى أكثره — على عمارة تريد أن تقوم ، ووصلت إلى آذاننا تلك المقطوعات الحزينة العميقة ، تنبعث من بين أكوام الحجارة حيث يضطجع الفعلة — وجلهم من أبناء الصعيد — حول النار يصطلون ، إذا كان الوقت شتاء ، أو يتنسمون الهواء العليل ، إذا كان صيفاً ، ويرددون أغانى لهم يتذاكرون بها وطنهم وأهلهم وأحبابهم . وهم ساهرون رغم تعب النهار ، كأنما تؤرقهم الذكرى .

هؤلاء هم الصعايدة : قوم جاءوا من بلاد نائية ، حرها شديد ، وزرعها قليل ، تغمر مياه النيل أراضيهم — الحياض — كل عام ، فيبطل العمل ، ويحلو الاجتماع والسمر على جسور النيل . ثم تتخطفهم الهجرة إلى القاهرة والإسكندرية وغيرهما من مدن مصر ، فيترك الأب أبناءه وزوجه ، والابن أمه وأباه ، والعاشق حبيبته ، طلباً للقمة العيش . . حياة محفوفة بالشقاء والترحال والفراق ، تلهب إحساسهم وتذكى عواطفهم . ومن ثم كان لأهل الصعيد روح خاصة ذات عمق وجمال وفن أصيل

ومن تبل هؤلاء القوم أنهم فى عز كفاحهم للحياة لاينسون الغناء، تتفجر قلوبهم بأغان ساذجة صادقة ، تمثل بلادهم وسحرها وفقرها ، وأبراج الحمام البرى المنتشرة فيها ، والنخل باسقات. والنيل عند فيضانه يفصل القرى فتصبح كالجزر العائمة ، وواديه الضيق تحده تلال تقبض عليه قبضة فكى كلب صيد على الفريسة .....

تتحدث أغانيهم كيف يلجأون لهذه التلال هرباً من رجال الحكومة، فتتعقبهم الهجانة السوادنيون . . كما تتحدث عن حماستهم للأخذ بالثأر ، والدفاع عن العرض ، وشوقهم وحنينهم للأهل والوطن والأحباب ، وحسرتهم على أيام الحياة تنقضى فى تنقل وفراق . وتنشد هذه المقطوعات بأنغام حزينة كلها أنين يلائم معانيها بساطة وحرارة ولوعة .

ولاتخلو عربات الدرجة الثالثة فى قطار الصعيد من طبلة تتناقلها الأيدى حتى تستقر فى يد خبير ولهان . فيخيل إليك أن الوادى كله يتغنى معه ، ويتلقف أناشيده،وأنها تنزل إلى ثراه كالحب وقت البذر ، فتكتب لها حياة متجددة أبداً لا تفنى . . قد أصبح للصعايدة قطار — أبو عجل حديد— يعرف باسمهم ويذكر فى أغانيهم ، هو القطار الذى يبرح الإسكندرية فى منتصف الليل ليلحق راكبه أول قطار يقوم فى الصباح المبكر من القاهرة للصعيد ، وإذا ذكرت الإسكندرية ذكر معها سيدى مرسى أبو العباس صاحب المقام العالى ، وله فى قلوب الصعايدة إجلال أيما إجلال .

وهناك فى قلب الصعيد النائى عند « البلينا » بلدة صغيرة يصل إليها قاصدها بعد أن يعبر النيل من بر السكة الحديدية ، هى بلدة مزاتة ، موطن الراقصة ناعسة . والفن الصعيدى مدين لهذه البلدة وتلك الراقصة . فلا تكاد تخلو مقطوعة من ذكر مزاتة وناعسة . فمزاته وناعسة رمز الوطن والأهل والأحباب وأيام الهنا .

وها هى بعض مختارات من الأغانى الصعيدية (١) ..

(١)

ياباجور الساعة اتناشر	يا مقبل ع الصعيد نارى يابوى
سلم لى ع الحبايب	ومحمد ولدى «
ياجريد النخل العالى	طاطى ورد السلام «
سلم لى ع الحبايب	آيا غايب لك زمان «
تحسبنى اليوم نسيتك	دا البعد اللى جفاك «
خايف أروح مزاته	ناعسة تتقل على «
ضمينى وأنا أضمك	ليل الشقا طويل «
شمس العصارى غابت	ياللى بلادك بعيد «
فرش الحمام على الميه .	فرحوا له الصيادين «

(٢)

خاين يازمانى	وديت حبيبى فين
ولا جواب جانى	شيعت له جوابين

(١) هذه الأغانى من جمع صديقى الأستاذ محمد عصمت .

سوده وعاجبانى عيون حبيبى ياناس
نجم السما العالى يشهد علينا الليل
ولا كان على بالى يوم السفر يابنات
نابو مقام عالى مرسى يابو العباس

(٣)

عدينى يا معداوى عدينى أنا
مد السقالة يا ريس معرفش العوم ياعم أنا
عدينى أنا ومحبوبى والأجره على أنا
محبوبى فى البر الثانى عنده مونة سنه
قدام بيت اللى بحبه شجره وضله ومعنى وهوا
يا رايح على مزاته حود ع البلينا
تلقى بنات عبد الله ناصبين السلطنه
وعمار يابو حمادى وزمان البلينا
ياللى حبيت ولاطلتش صعبان على أنا
ومدام خالى السوابق على أيه تنذرنى ياعمده أنا
ناعسة نزلت فى القارب ماتنسم ساعة ياهوا

• •

وأخيراً نورد تلك المقطوعة التى خلدها الذين جندتهم « السلطة » العسكرية الإنجليزية بأنواع من القسر والجبروت فى الحرب العالمية الأولى زاعمة أنهم متطوعون . وكان سيد درويش يقدرها ويقول عنها :

« الطبيعة فوق الفن »، ويغني منها البيتين المشهورين ويرددهما وهو يبكي ، يرحمه الله . . . .

على يوم ما رغبونى	لم كان لى مرام
وعطـــونى الثلثمايه	وقالوا لى كتبوك جهال
وانا كل ماأقول التوبه	ترمينى المقـــادير
وعـــد ومكتوب على	ومسطر ع الجبين
يابهيـــة خـــبرينى	بااللى قتل ياسين
قتـــلوه السودانيـــه	من فوق ضهر الهجين
وبهيـــه فى المحـــاكم	شلت واحد وكيل
احكم بالعدل ياقاضى	قدامك مظـــاليم
عوج الطربوش على شقه	حكم باربع سنين
سنتين فى السجن العالى	سنتين فى الزنازين

. . .

وكان من حسن حظي أنني عشت في صدر شبابي سنتين في الصعيد ، فأتيح لي أن أطل على بعض أسراره . ثم تغربت عن مصر وكان خليقاً بي أن يشغلني الجديد عن القديم ، ولكني وجدت نفسي أجتر على مهل ذكرياتي عن الصعيد، كأنني لم أفارقه . وأنت لا ترى الشيء حق رؤيته إلا إذا غاب عن بصرك . فجرت يدي بقصص شتى أجمع بعضها اليوم في كتاب واحد، بعد أن طال على تشتتها الزمن ، وقصدت أن أبقى نصها — إلا في القليل النادر — على حاله ليبقى لها عطرها الأول .

وأحسب أن الذى حركنى اليوم لتقديم هذا الكتاب للقراء ، هو أن وطننا المحبوب الذى كان يؤرقنى ماعاناه من مظالم ، هى التى أوحت إلى بهذه القصص ، قد أذن الله له سبحانه وتعالى بمنه وكرمه أن يفكك أغلاله ، ويحكمه أبناؤه ، وتتم له العزة والكرامة ، ويتطلع إلى مستقبل مجيد . .

عوف الله . . عوف الله . . .

البوسطجي

الفصل الأول

بلاغ ورا بلاغ

١

دخل حسنى أفندى مكتبه : خطوته سريعة ، جبينه معقد . وأخذ – أى خطف – البلاغ من يد الغفير ، وانفجرت من بين شفتيه لعنة ضاع لفظها طى حدتها . يستدعيه المأمور على عجل ، فيقوم من وسط عشائه مضطرا ، بعد نهار قضاه على ظهر الحمار .

وأخذ الغفير يرقب عينى (حضرة المعاون) تجرى أثر السطر ، وتنثنى تلاحق تاليه ، فإذا به يرى التقطيبة تخف ، وزالت عن الخدين خطوط قليلة ردت التكشيرة ابتسامة تطل .. وقال الغفير فى نفسه وهو يبلع ريقه :

الحكام كده .. ياما اسرع غضبهم ..ياما أسرع رضاهم !

واستراح حسنى فى جلسته ، واستقام ظهره وأمسك البلاغ بين يديه ، وباعده يتفرج برؤيته ، ثم بدأ يتلوه على نفسه فى تمتمة غير مسموعة . كلما نطق بكلمتين رد عليهما بهزة من رأسه ، تصحبها تلعيبة من حاجبيه ، وشاركهما رجله اليمنى . فهى — من تحت المكتب — تقرظ كل تلعيبة بنقرة .. وختم تعليقاته والبلاغ بضحكة أمالت رأسه ، تخرج من وسط الحلق ، ثم إلى الأنف ، وقد تعود إلى الحلق ضحكة فاحشة ، خليعة غجرية .

وكان الغفير قد فهم منذ زمن أن حضرة المعاون : « عما يتمسخر على البلاغ . ما هو العمدة مش ولد مدارس » . ومال بقلبه ضد العمدة « بلدياته » مع المعاون الغريب ، رغم شخطه ونطره » . وابتسم هو أيضا ابتسامة ذليلة كلها تملق :

— دا البلاغ اللى ح تقوم القيامة عشانه ؟ داهية تسم القفا ياسيلى .

ضحكة أخرى أخف . وأخذ يعيد القراءة بصوت مرتفع : فيها أنه يتذوق السخرية من جديد ، وفيها أنه يتفكه بصبها كلها على رأس الغفير الواقف أمامه كاللوح .ويشمله بتهكمه لتكون لذته مزدوجة :

« ساعة تاريخه بمرورى من بحرى ، حسب أوامر سعادة البيك المأمور . ما أشعر إلا ورأيت سليمان عبد العال ، فما كان منه إلا أنه

أخبرنى أنه سمع بالاشاعة أن ناظر بوسطة مكتب الناحية بلدنا ، عباس أفندى حسين ، اتهجم على محروسة بنت الشيخ مبارك حال كونها رايحة تشترى متر جاز من دكان الشيخ رمضان ، وأن المذكور أعلاه اتهجم على فرحانة بنت المعلم رضوان بعد صلاة المغرب ، فانسرعت وجرت منه ، لاسيما أنه فى الطريق العمومى . وبسؤالهم لم واحد منهم اشتكا خوفا من القولة و كلام الناس . وللأهمية الجميع مرسلين للمركز أفندم ...

عمدة كوم النحل

عبد السميع وهدان

حاشيه — عباس حسين أفندى عاصى على أوامر الحكومة وشيخ الخفر ، ولم رضى ينزل معاه

عمدة كوم النحل

عبد السميع وهدان

لم تكن فصاحة البلاغ — ففيه « لاسيما » — هى وحدها سبب ضحك حسنى . بل لم يستطع — وهو المعاون القديم فى الكار — أن يتمالك نفسه إزاء مكر العمد ، يبدو فى مثل جديد . ولكنه هذه المرة مكر صبيانى يحاول أن يخبئه عبد السميع وهدان بين السطور .

ففى أول البلاغ (أوامر سعادة البيك المأمور) وفى آخره (للأهمية) ... رجل خدام حكومة يخلص نفسه من المسئولية ، ليس له يد ولا إصبع ، ولكن أين من يقرأ هذا البلاغ ولا يفهم

أن بين العمدة و (ناظر بوسطة الناحية بلدنا) حزازات ، أو بتعبير العمدة نفسه : « حظاظات ، وخصومات » ... ليس فى البلاغ شكوى من أحد المجنى عليهم .. والمرسلون للمركز ، والوقت ليل ، شهود قد يكونون غير متطوعين .. وحسنى ليس فى حاجة لهذا البلاغ ليفهم مابين الرجلين من خصومة . فهو يعلم أن ناظر البريد يسكن أحد منازل العمدة ، وبسبب ما شب بينهما حول هذا المنزل من جدل كله عناد .. العمدة يصر على أن يخرج من داره هذا « الأجرى » الرحال ، ليس له عشيرة تلمه ولا بلد يقره . ماهيته ؟ يدفع مثلها حلواناً للصراف ولا يبالى . والموظف المتعاظم ببدلته وطربوشه ، وسلطة الوظيفة وراءه ، يتكبر على هذا الفلاح الجاهل ، الجلف مكانه وراء الجاموسة لا بين الناس .. يجب أن ينهزم أمام الحكومة .

ولم يكن حسنى نسى بعد كيف جاءه العمدة من قبل شهر يشكو عباس ويطلب إخراجه من المنزل على عجل . ولمح له أنه يستطيع بفضل الوسائط أن ينقل خصمه من البلد كلها ، لا أن يخرجه من الدار فحسب . فوعده حسنى بكلمتين حلوتين ، أن ينفذ له غرضه ، وهو ينوى أن يصلح ما بينهما . وانتهز فرصة وجوده فى كوم النحل بعد يومين ، وعرج فى طريقه من المحطة الى البلد على مكتب البريد . ولم يكن رأى هذا الشاب العنيد من قبل ، ولم يشأ أن يستدعيه إلى دوار العمدة ، حتى لاتكون « الكرامة » سبباً للرفض ... وقف حسنى أمام الشباك ، وأمسك بأحد أعمدته ، وأطل من بين عارضتين :

ياعباس أفندى ؟

فواجهته رأس على كتفين تقبع فوقهما كاليافطة كلمة (بوستة)
خيطت من قماش أصفر بخط قبيح .. ورأى وجهاً مطاولا يخرج
منه بوضوح أنف دقيق . فتحناه ضيقتان ، تحتهما شفتان رقيقتان .
فوق الجبين شعر أسود فاحم ، زاد إهمال صاحبه له من جمال حلقاته
المشتبكة .

ياعباس أفندى! كنت عاوز أكلمك فى كلمة صغيرة .

أفندم .

مش من صالحك تخانق العمدة ، أنت راجل منا وعلينا ..
أنت أخونا وأنا أقدم منك وأفهم الراجل دا ... دا راجل طيب لسه
عيل . الواحد يضحك عليه بكلمتين يبقى زى العسل . يهب يهب
وبعدين ينطفى

— دا لسانه زفر ...

لا ... لا .. أنت غلطان

وأستمر الكلام بين الوجهين ، ينقلان كل حين وآخر مكانهما
بين قضبان النافذة . ثم لان الحديث ، واختلطت أعمدة الحديد
بالابتسامات والضحكات ، ومد عباس يده فصافحة المعاون .. ولما عاد
إلى المركز ظن أنه قضى على النزاع وأراح نفسه ، بالأخص — من
تحقيق شكاوى العمدة فى المستقبل ...

فإذا هذا الامل يهدمه الغفير الواقف أمامه ..

لا يستطيع هذه المرة أن يصرف المسألة « حبياً » أو يضحك على

عقل الاثنين بكلمتين من كلامه الحلو . فهذا بلاغ به رقم وفيه مسئولية ولكنه لا يدرى لماذا لاتطاوعه نفسه على السير فى تحقيقه »؟ فليس من شك أن وراءه ضرراً لهذا الشاب .. ولكن ما الذى يربطه به ؟ وماذا يهمه منه ؟ فى قرارة قلبه ميل خفى .. هل مبعثه حلقات الشعر المشتبكة ؟ أم إحساسه بالشفقة نحو هذا الوجه المدفون فى غرفة مظلمة رطبة فى بلد حقير ؟ .. عندما صافحه من بين ثنايا العوارض الحديدية خيل إليه أنه يمسك بيد سجين . .

و « كلفت » حسنى التحقيق بمهارته وصرف الناس ، ثم قام إلى التليفون وطلب الصراف وكلفه أن يرجىء عباس أن يكلمه . وبعد قليل كان فى صوته صداقة غير مفضوحة . وثبات وتأكيد . ويرن فى السماعة على أذنه صوت سريع اللهجة ، محتد الكلام . مهتاج اللفظ . ولكنه فهم ، ووعد بما كان حسنى يرجوه فيه .

فى اليوم التالى قبيل الظهر دخل عليه عباس وهجم على مكتبه ، يتكلم وهو واقف . . . عضلات وجهه ترتعش ، محتقن اللون . وانفجر لا يتمالك أعصابه ... هو يعلم الشكوى المقدمة ضده .. ماذا فيها ؟ أنه يفعل ما يريد . ولو أراد لفعل أكثر من ذلك . على أن هذا لم يحصل . وماذا فيه لو حصل ؟ إنه يهزأ بأقصى ما يمكن أن يطلب منه كرد شرف .. أمن أجل المنزل كل هذا ؟ ماذا قال لهؤلاء البنات ؟ هل سب ؟ لبس بسبب . هل سمعه واحد ، واحد فقط ، لا يكون من أتباع هذا العمدة السيىء النية ، الخبيث ؟ أو يشهد بأنه كلم البنات

كما يدعى — فى الطريق ؟ . المنزل رطب ودون ولا يستحق الإيجار الذى يدفعه . ان أراد إثباتا يحضر له « الإيصالات » . إنه يقسم بالله ألف مـــرة أنه لايعرف هؤلاء البنـــات ، حتى أسماءهن . الشمس لا تدخل غرفة النوم ، والفيران كالقطط . وهكذا وهكذا . وهو يلوح بيديه يكاد ينكفىء على المكتب ، وأصابت حركته الدواة . فاندلقت على الدفاتر ، ولكنها لم توقف من حدته ، ولا قطعت تحديقة حسنى فى هذا الشاب المحموم ، تأسره من وجهه عيناه . لم يكن دقق النظر فيها من بين العوارض . فإذا به الآن أمام عينين تضيقان وتتسعان ، لا يستقر إنسانها لحظة . لها بريق غريب . ماؤها يغلى . .

أجلسه حسنى ، ولم يفاتحه بسؤال . وعند انصرافه أخذه من ذراعه وسار به إلى داره ، وأغدق عليه من « كولونيته » . وتركه فى غرفة استقبال متواضعة ، ولكن كنباتها بأغطيتها البيض وجوها الهادىء تريح الأعصاب المتعبة . ولما دخل عليه من جديد ، وجده يخفى وجهه بين راحتيه ويبكى بحرقة ونهنهة متتالية . فانسحب دون أن يشعره بنفسه ، لعلمه أن الأزمة لاتنتهى إلا بهذا الانفجار .

نما العطف بين قلبيهما ، وأكلا معاً ، وقص عليه حسنى من ذكرياته وتجاربه حكايات تنسى الهموم . فابتدأ عباس يعود للحياة ، وشكا له أنه تعب من صحته فى الأيام الأخيرة . فهو يأرق بالليل ، يشعر فى الصباح أنه يقوم من عمل شاق ، فجسمه مجهد مكسر ، لم يرتو من النوم والراحة ، أقل الأسباب — بل أتفهها — يستفزه الآن على خلاف

طبيعته ، فينفجر فجأة ويهب. له حدة تعلو درجة درجة حتى يفقد سلطانه على نفسه ويصبح كلامه خليطاً من صراخ غير مفهوم ، ثم يهدأ على دوخة تملأ رأسه وتكاد تصم أذنيه .

أمس جاءته هذه الدوخة فى الطريق . لا يدرى ماذا فعل ؟ وهنا تلعثم وخفض ببصره وصمت. ثم عاد يؤكد أنه لا يعرف الفتيات كل البلد تعلم عنه الشرف وبعده التام عن المسائل النسائية . وأكبر دليل هو أن النسائيات معدومة من نفسها بالمرة فى كوم النحل ، وهى بلد كالحق .

وانتهى النهار على صفاء . وأكد لحسنى أنه واجد حلا يقضى على خطر البلاغ . ولما هم يقوم ، شد الضيف على يديه. فابتسمت له عيناه ولكن ليس فى نظرة حسنى الفاحصة ولا شعوره الحساس ، ما يطمئنه على أعصاب هذا الشاب ، ولا على ما تخبئه له الأيام .

لم يطل صمت عبد السميع وهدان . فبعد أسبوع واحد كان عباس من جديد موضوع بلاغ آخر . وفى هذه المرة ترك العمدة مكره وأناقته فى الأسلوب ، وعدل عن اللف والدوران ، وكتب بلاغاً قصيراً صريحاً ، ليس فى آخره تحريض. فى بعض الأحيان يكون أسلوب العمد هو أصدق وسيلة للتعبير عن بعض جرائم الريف ، وتكون سذاجة الكلام هى الإطار الوحيد الذى يتناسب وما لجرائم الفلاحين من صور بدائية . والحادثة الجديدة ، وإن لم تكن من ضمنها ، إلا أن

بساطة الأسلوب ظلت قالباً ملائماً هذه المرة، لا لتوافقه بل لتناقضه . فقد تضمن البلاغ الساذج حادثة مشتبكة لا يمكن فصل عناصرها . هى مزيج من التعقيد والبساطة ، من المحتمل والمستحيل ، من التعقل والجنون . ولم يكن غير هذا الأسلوب – الذى يظن أنه آخر ما يصلح لوصف هذه الحادثة الشاذة – يستطيع أن يلم على الورق – بالبساطة ، رأساً من غير تطويل أو فلسفة فارغة – ما للحادثة من شتات مائل الوضع ، متنافر الأجزاء ، مثير للدهشة والعجب ، ومن صميم كله حزن وفجيعة ....

عباس عائد فى الصباح المبكر إلى المحطة ، راكباً ركوبته فوق الجسر ، أمامه حقيبته الصفراء مملوءة بالخطابات . يثير دهشة أفواج الفلاحين الذين يمر عليهم ، لأنه لا يرد سلام من يحييه منهم .. له ظل واضح الأطراف متعلق بأرجل الحمار ، وسطه ملتو على الجسر المائل ، وآخره يتسحب تحته على بعد – كالمراقب الحذر – فوق الغيط المجاور . فى الجو نسيم مشبع ببرودة يستلذها الوجه، وفى السماء قطع من سحاب ، عذارى ، رقيقة الحاشية ، زاهية اللون ممشطة مترفة ، تسير الهوينا – متداخلة متفارقة – للتنزه والتمطى فى الشمس ، فهى شفافة مبتسمة ، ليست سودا ولا دكنا ، كأخوتها الحبليات بالمطر وفجأة رآه يفتح الحقيبة ويتناول منها بعض الخطابات ويمزقها أرباعاً ثم يرميها بذراع مفرودة فتطير فى الهواء كالريش ، ثم يعود من جديد ، والفلاحون يحملقون فيه لا يدركون علته . بدأ

بعضهم يضحك .. وجرى آخرون وراء قصاصات الورق ، ثم انتهوا وتجمعوا عليه . لايكاد يقوى على البقاء فوق ظهر الحمار ، فهو محنى يهتز — ورقبته ليست منه — إلى الأمام والخلف . عيناه مريضتان قد انطفأ بريقهما .. وجهه أصفر ، وحالته كرب .

الناظر عيان ...

دا مسوراً ...

رشوا عليه ميه ...

وأحاطوه بالأذرع . وسندوه بالأكف ، حتى أبلغوه منزله ، وحملوه إلى فراشه .

٣

لم يكن فى تقدير حسنى أن يتحقق ظنه بهذه السرعة ولا على هذا الشكل ، فهو لم يتم قراءة البلاغ الجديد حتى ترحم على مستقبل هذا الشاب . وارتسمت أمامه صورة عباس أمام وكيل النيابة يلاحقه بالأسئلة ويفتش ثيابه . علّه يعثر على نقود سيدعيها — فى أغلب الأمر كذباً — بعض أصحاب الخطابات . فالفلاح يعرف كيف ينتهز الفرصة . ثم يتلوه مندوب مصلحة البريد بأنواع من الأسئلة الأخرى . كل هذا وهو مريض ، وحيد ، فى منزل مقبض ، فى بلد يرأسها عدو يشعر — وهو على بعد — بشماتته .

قصد حسنى أن يصل لكوم النحل قبل الجميع . يود لو يستطيع أن يقتطع من الزمن بضع دقائق يخصصها لمقابلة وحديث بينه وبين

عباس ، حتى لا يتداخل أو يقاطعه فيها أحد . ولكنه فى القطار هبطت حماسته وسرح ذهنه فى أفكار عديدة، تبدو أن لا رابطة بينها وبين البلاغ . ومع ذلك كانت حادثة عباس المحزنة هى اليد الخفية التى تحرك أفكاره . لا تجثم بها إلا على كل فرع أجرد ، أو ماء آسن . وصل إلى المنزل وهو متعب ، ليس على لسانه كلمة من كلمات التشجيع التى جالت فى ذهنه من قبل . فهم من الغفير الواقف على الباب أن عباس لا يزال فى فراشه ، وأن العمدة أجهد نفسه فى جمع قصاصات الورق ، فبلغ عدد الخطابات الممزقة حوالى الأربعين .

وجد حسنى صديقه راقداً فى سرير صغير ، فى غرفة مملوءة بالتراب وأسراب الذباب . أمامه منضدة صاج مخربشة كالحة ذات ثلاث أرجل ، وكرسى واحد . أخذه حسنى وجلس بجانب النافذة .

ولما رآه عباس حاول القيام . ودلى رجلين نحيفتين يبحث عن قبقابه . العيون التى كانت تلتهب رماد قديم .. حركاته بطيئة مجهدة . أين عباس الثائر وحدته ، من هذا الجسد النحيل المحطم ؟ وجهه فى صفرة الليمون ، ولكنه هادىء ، بل حاول الابتسام فبدت على شفتيه ابتسامة ذابلة ، ما أجدت الا أنها أكدت مرضه .

ـ أحسن ؟

ـ أحسن كتير .. والحمد لله .. نمت شوية .. كنت سخن .

ـ وربنى ..

مد له عباس يده ، فأمال كرسيه وتناولها بكفه لحظة واحدة ، ثم تركها .

— لا .. حرارتك عادية . مافيش حاجة .

لمسة اليد هي التي فتحت الطريق . عاد عباس إلى السرير ، وأسند ظهره على الجدار ، ورفع ركبتيه حذاء صدره وغطاهما ببطانيته . ثم بدأ يتكلم على مهل ، كأنه يتلذذ بالحديث .. مرة من أول الموضوع ، ومرة من وسطه ، وربما جاء بالنتيجة قبل السبب . يطيل على هواه ويقتضب . أغلب الأمر أنه كان غير واضح ولا منطقى فى سرد ما يقوله .. ولو كان أمام غريب لقاطعه بألف سؤال واستيضاح . ولكن حسنى لم يفتح فمه . ذراعه على حافة تعمد رأسه أحياناً . عيناه صادقتان مواسيتان تشربان من الحديث . لا لبس فى نظرتهما .. هو فاهم . وشاعر بكل ما فى قلب محدثه . رغم الغموض والاضطراب وضياع المنطق والتسلسل . ولم تفته نغمة واحدة ، مهما كانت خافتة ، من لحن صديقه .

الفصل الثانى •

عباس •• أصله وفصله

١

نشأ عباس من أسرة كل أفرادها موظفون صغار لم يبرحوا القاهرة . كلهم يؤكدون أنهم من سلالة عربية (تشهد عيونه السود ووجهه الضيق الطويل) ، وبعضهم يضيف أنهم من السادات رغم أن سلسلة النسب الغريب التى يحفظونها تنتهى عند جدهم الثالث كل مايعرفونه عنه أنه هبط مصر من طرابلس ، واستقر بالفحامين فى تجارة صغيرة قوامها الشاى والبلغ . وعند وفاته أقفل الدكان ، وتفرق أولاده من المدارس على وظائف الحكومة . معظمهم مات بعده بقليل ، وهم فى مطلع الرجولة . فقطعوا بذلك ماضى الأسرة عن جيلها الحاضر .

ظل عباس لايرى فى هذه التفاصيل سوى حكاية يسمعها ويرويها ولا تؤثر على حياته . إلى أن انتصفت دراسته الثانوية . فاستيقظت فيه عاطفة من الغيرة كلما رأى — إذا اقتربت الإجازة السنوية — طلبة المديرية الواحدة يجتمعون ويتناقشون فى موعد السفر ، والتذاكر المخفضة للجماعات . وجرح قلبه . هل أسرته نبات شيطانى عائم على وجه الماء ؟ فى نفسه ضعف لشعورها ، بأنه ينقصها — على خلاف من حولها — جذور قوية تربطها بمكان معين . إجازته كدراسته تمضى فى منزل لا يستقر فى حى واحد ، يصغر ويكبر . ويطول ويقصر . وأخذ يصبر نفسه . يتلوق دونهم لذة لا يعرفونها . فهو قد فهم من محادثته معظم هؤلاء الزملاء أنهم ما يكادون يصلون لبلادهم حتى يخلعوا بلدهم ولا يرونها إلا إذا حان موعد الرجوع . أما هو فبعيد عن هذا الانقلاب وهذه الحياة ذات الوجهين . فبذلته موجودة كل يوم تنتظره بعد العصر ليخرج يتجول بها فى شوارع القاهرة . له ثلة من الأصدقاء سريعة تنقل الأهواء. مرة فى قهاوى المالية تلعب الطاولة . ومرة فى قهاوى أبى الريش تلعب الشطرنج ، وأحياناً فى قهاوى سيدنا الحسين يتعشون بالكباب (اسم الطعمية فى هذا الحى). ثم إذا جاءهم فرج أول الشهر يتبخترون بضعة أيام فى شارع عماد الدين . هم فقراء لا يحتكم أحدهم على ريال صحيح ، ومع ذلك يشعرون كأن قهاوى القاهرة وشوارعها وفسحها ملك لهم .

استمر فى دراسته إلى أن اقترب من البكالوريا ، فإذا بنوع من سوء الحظ أحاط بأسرته . لا يستطيع أن يضع إصبعه على حادثة معينة ويقول : هى السبب . فالأسر مخلوقات تهبط أحيانا تحت تأثير مرض خفى غير معروف يمنعها عن السير . أبوه – بدون مناسبة – ارتبك فى عمله ، وأحالوه قبل موعده على المعاش . وأخته غضبت وعادت للمنزل . لا هذه ولا تلك أثرت فى حالتهم المالية تأثيراً جسيما . ولكنها فتتت – بغير سبب واضح – من قوة تضامن الأسرة فتبعثرت وخرج عباس – مختاراً – من المدارس يبحث عن عمل ، فوجده فى مصلحة البريد . ولبث فى القاهرة زمناً يتمتع بمرتبه يصرفه وهو نشوان فى تحقيق رغبات الصبا المتكتمة . كلما أذاقته شبعا خلقت بدله جوعاً جديداً لأنواع مختلفة من اللذات . كالسلسلة المستديرة تأخذ الحلقة بعنق الأخرى .. ولكن دوام الحال من المحال . وجاء اليوم الذى صدر فيه أمر نقله : (ناظر مكتب كوم النحل) ...

من ساعة ما حطيت رجلى فى البلد ما طقتهاش ، حسيت إنى محبوس .. فين مصر وشوارعها ، وناسها ، وفين الليل مليان نور ، ونسوان رايحه وجاية ، وحركة .. لكن هنا : أهو الشباك قدامك .. بص .. تلاقى إيه ؟ شويه طين مكوم ، وناس وسخين مقملين ، وتو ما يدن المغرب كل واحد يتلم فى بيته .. والعتمة ؟ ياباى من العتمة ياباى طول الليل حمير تنهق وكلاب تعوى .. أول امبارح جاموسة الجيران ماتت .. قبل ما يلحقوها بالسكين فضلوا يصوتوا عليها ، وهات يالطم .. جنازة حق بحقيق . ما نمتش للفجر .. »

لم يكن حسنى أقل ضيقاً بالصعيد من محدثه . كل شفاعاته أن ينقل إلى بحرى . أطل من الشباك على بيوت واطئة متراصة . الفقير منها بالحالوص (١) والغنى مبرقش بفتات التبن فى طوبه التى . كلها أقزام متراحمة متلاصقة كأنها قبيلة متوشحة ، على رؤوسها شعر الهمج ، فى تلول هشة من حطب القطن وبوص الذرة ، ووصلت إلى أذنه صرخات متعالية ، بعضها للإنسان وبعضها للحيوان ، لا فرق بينها .. حدة الصارخ فيها واحدة . وعناد المتهور سواء ..

على أن عينه لمحت .من فوق أكوام الوقود خضرة ممتدة .. لا يرى فيها شيئاً بوضوح . هو حقل فول لم تظهر قرونه بعد . أزهاره فى مقتبل عمرها ، بعضها أبيض ، وبعضها ضارب للحمرة .. كلها تهتز فى حركة خفيفة . لا يستطيع أن يحس بها من رؤية القرون مهما كثرت بل لابد أن ترتمى نظرته وتشمل الحقل على امتداده . الحركة تجول فيه ، مختلفة النمط هنا عما هناك . ولكنها رغم هذا الاختلاف شخصية واحدة لها سحر . العيدان كلها — فى هزة المرتلين — تشترك فى أنشودة خافتة معسولة .

فى بعض الأحيان يمر بركوبته وسط هذه الحقول وتشمله بعطرها فينسى كل همومه ، وثقالة الصعيد ، ويسرح ذهنه ، ويشعر أن ما بينه وبين الله قد عمر من جديد . هو أسير الصعيد ، ولكنه مذعن ، موطد نفسه على الرضا بما فيه . أما عباس فزهرة لا تنتزع من أرضها

---

(١) قطعة من الطين الجاف تستخدم فى بناء بيوت الفلاحين .

إلا بتلف جذورها ، فهى لا تتشبث بعد ذلك فى منبت جديد .
لايقوى على البعاد عن القاهرة : أمه وعشيقته . هو كالنحلة تستمد حياتها من زحام الخلية ، وإن كتم أنفاسها . فإن وجدت فى وحدة ماتت ولو كانت فى أطيب مرتع وأرفه حياة .. وعميت عيناه عن ثروة الصعيد فى سمائه وحقله ، وسمرت على أكوام الحطب .

٢

« والأدهى من كده أن دى أول مرة ألبس فيها بدلة البوسطة الملعونة دى . عامل أفندى بالكدب . لا طلت عنب الشام ولا عنب اليمن . عمر الفلاحين ما بصوا لى وأنا فى البدلة الصفرا دى ، زى ما بيبصوا باحترام لمعاون دودة حقير ، ولا كاتب صحة أصله مزين علشان لا بسين بدل . كلهم يعرفونى . لكن ماشفتش واحد ، بلاش أنكت وياه ، أتكلم معاه . العمدة راجل جلف زى ما أنت عارف . حتى الصراف هنا من طرز زمان ، عجوز وبعمه . أقرب أفندى لى ناظر المحطة ، ودا عشان أوصله لازم أركب الحمار تانى وسط العفرة ٣ كيلو . بقيت أخرج من المكتب للبيت ومن البيت للمكتب . كنت ح أجنن أبقى معذور ولا لأ ، إذا كنت اتعلمت الشرب ؟ كل ما انزل البندر أجيب إزازة أو إزازتين كونياك . كل مصروف إيدى رايح على الخمرة . وأخرتها اتبهدلت بقايا القيافة بتاعت زمان طارت ، وبقيت أسيب دقنى بالجمع ، واتعودت أروح بالجلابية والحاكته للمكتب . ما ألبس البنطلون والياقة إلا لما يجى مفتش . ليه خوتة الدماغ ، واقلع والبس فى البدلة وانت وسط الناس دول ! !

وابتسم عباس بحسرة وتندم ، ثم صمت . له كل حين وآخر ضربة خفيفة على ركبتيه . كأنه يروض نفسه العاصية على البوح بما فى صدره :

«كان الكلام ده قبل الوقفة بيومين . وأنا واقف فى المكتب جالى الصراف وورانى قصقوصة قماش صغيرة فى ايده زفير ولا بوبلين حاجة زى دى . وقال لى :

— ياعباس أفندى . حاجة لقطة ، والبياع قومسيونجى صاحبى تحب أجيب لك كام متر من دا ؟ يعجبك ؟

— عشان إيه ؟

— ليه ؟ مش ح تفصل لك جلابية على العيد ؟

مش فاكر قلت له إيه ، فاكر إنى رحت أودة تانية . حاجة محيرانى . أضحك ؟ دى أول مرة أسمع فيها إنى أبقى زى ولاد البلد ، وأفصل بدل البدلة جلابيه . تصور ؟ كل فرحة العيد قال تفصيل جلابية ! ! حاجة تضحك ولا تبكى ؟ اللمعة طفرت من عينى مرة واحدة . وهات ياعياط . . عمرها ما حصلت لى . ماكنتش أتصور أن كلمة سخيفة زى دى ، تخلينى أعيط زى العيال العياط دا كله .

٣

كم تحسر عباس فى هذا الوقت على أن الحظ الذى رماه فى كوم النحل لم يجزه بإساءته عملا مسلياً يعينه على تحمل الوحدة التى تكاد تقصف عمره ، وتطير برج عقله . كان يحسد ناظر المحطة وعامل « البلوك » ،

بل وخفير « المزلقان » ، لأن لهم فى القطارات وحركة المسافرين وتطلع الوجوه ، ما ينقذهم من وهدة الضجر والسأم . أما هو فعمله آلى رتيب ، فى غرفة ضيقة لا مفر له منها . فى أول الأمر كان له فى الخطابات جدة تأخذ عليه جزءا من تفكيره . وربما تفكه بما على الظروف من أغلاط الإملاء ومبتكرات الفلاحين . (من مصر المحروسة لكوم النحل قبلى) ، (إلى كوم النحل المحطة ومنها إلى كوم النحل البلد) كلها (خير وسلام) ، و « بلدوح » بأرقامها ، ومن « يد ليد » إلخ إلخ . ولكن بعد قليل حرمه التكرار حتى هذه المتعة الضئيلة . وأصبح يحفظ عن ظهر قلب أسماء من ترد لهم جوابات وجهة ورودها . بل أصبح يستدل على صاحب الخطاب ، لا من قراءة عنوانه ، بل من شكل الظرف أو خطه أو لازمته ، وكره عباس أيامه ، وبدا له عمله فى صورة سلسلة من الخطابات موكلة به ، كالصبية حول معتوه تشاغله ، لا يصفع الواحد منها بختمه ، حتى يجىء له من جديد ، هو هو بذاته لا يتغير ، يخنقه فى كيس أصفر ، ويقذف بجثته فى القطار ، فيجده - بعد أيام — على المنضدة يصبح عليه .

وهبطت على عباس رحمة من الكونياك فعتمت له ذهنه ، وأرخت أعصابه ، وعلمته كيف ينسى عمله وأطواره نسياناً يكاد يكون تاماً . يؤدى وظيفته كالمنوم المسوق ، وزاد إهماله ، وعلا التراب كل المتاع .

على أنه وإن تخلص من ملل العمل لم يستطع أن يهرب من وحدة

المعيشة . هي التي وسوست له من جديد . وأعادت له التفاته إلى وظيفته ، ولكنه هذه المرة التفات خطر . فقد بدأ يأخذ الخطاب بيده — كأنه يزنه — ويطيل إليه النظر. ثم يضحك . ما هذا العالم المتشابك ؟! حتى إلى أصغر القرى تصل هذه السلوك من الورق ، تربط الناس بعضهم ببعض مالا يربطه الحديد . ليس يفهم ما بين الناس من تماسك إلا من يدخل مكاتب البريد . هذه الجماهير التي ترى حرة في الشوارع . في أثرها رسائل تلاحقها وتأخذ بتلابيبها، تصدمها وربما عرقلتها وكفأتها أو غيرت مجرى حياتها إلى مالا تظنه ولا يخطر لها على بال . قد تكون استجداء أو تهديداً ، شكوى أو تحكما، بعضها قسوة وبعضها استرحام قد تكون محبة أو عداء. مكتوبة بالعطر أو بالدم .قد تكون كلها أرقاما تمثل خراب بيوت، وقد تظفر وحدها دون غيرها بدليل على خيانة زوجة طاهرة ، أو اعتراف بجريمة. وقد تكون بعد ذلك تافهة ، غثة ، تمثل ما في الحياة من رغاء كهدير الإبل ، ولكنها — رغم ذلك — لها قيمتها لأنها مغلقة ، مجهولة ، مطوية، فلا يختلف جواب عن جواب كلاهما سر محجب لو لان الصمغ لانكشف عن أمر عجيب . وحتى لو لم يظفر المقتحم بشيء فإنه سيقع على أمثلة من طبائع الناس وأهوائهم : سيشجيه أن يرى كيف يضع الله في كل قلب ما يشغله ؟ لا يتشابه قلب وقلب : كلها مسارة روحها مصونة، لا يفسدها الجهر ، فالطبيعة فيها على حالها: لا مواربة ولاخداع . وربما لا تحوى الحياة متعة تقارب لذة تتبع رسائل عقل حساس — أنا كان عصره أو طبقته .

وأخذت يد عباس تأكله. ورغم اجتهاده لم يستطع أن يفهم البلد وعقليته . وشهوات أهله ومناحى أفكارهم. فهل يكون عمله هو المنحة التى وهبها له الحظ ليوقفه من كوم النحل على أدق دخائلها ؟ وأخيرا ــ لسوء حظه ــ طرأ عليه وهم هو وحده الذى رجح الحجة المريضة . وقذف به إلى الجريمة . هذا البلد الكريه سلبه شبابه ، يكاد يكون مقبرته . وهؤلاء الناس المثلثون، المصفرو الوجوه ، المرضى العيون ، يضمرون له ــ لأنه غريب ــ ازورارا وانقباضاً، كلهم يضحكون فى وجهه] بخبث وتباله ، وهو يفضلهم بتربيته وعقليته . ففى العمل الذى سيقدم عليه خير انتقام منهم . سيطويهم جميعا علمه ، وتضمهم قبضة يده ، وسيقف أمامهم صامتاً ولكنه يهزأ منهم فى قرارة نفسه . وسيكون هو الفائز لا محالة . سيحتاط للأمر ، ويربط لسانه، ويكتم السر فلا يدرى به أحد . فليس من خطر .

وكان مقدراً عليه فى يوم ، بعد انتهاء عمله ، أن يختار جوابا غير محبوك الظرف ، ويفتحه على مهل . .

«... إيدى كانت بترتعش . خايف وبرضه مقاوح . لكن رغم دا ما شبعتش من جواب واحد . بعد ما قفلته فتحت جواب تانى . جوابات فلاحين حسابات وسلام وسؤال عن الأقارب . ومع ذلك كنت مبسوط . حاجة انزاحت من على قلبى . لغاية دلوقتى مانيش عارف ازاى قدرت أعمل كده . . مش دى طبيعتى . لكن حاجة وزتنى . . والشيطان لعب بعقلى »

اعتراف ساذج لمس قلب حسني فابتسم . . وقلبه حزين .
ليس عباس أول شاب يعرفه يأتى من القاهرة ليرتكب أول جرمه فى الصعيد . كثيرون غيره جاءوا أصحاء النفوس ، على وجوههم جمال الرضا والاتزان ، فى حركاتهم وملابسهم تأنق ، فأصبحوا بعد زمن غلاظ الوجوه ، سمان البطون ، ثقيلة حركاتهم ، نظرتهم حيوانية ، وكلامهم بذاءة متكررة ، وفكاهتهم منحطة. أفكارهم سخيفة محصورة، ضيقة . حين يعودون لمدنهم ينكرهم أصدقاؤهم ، وتختلف أذواقهم حتى كأنهم شعبان مختلفان .

الصعيد هو المسئول عن تلفهم . . فهم طيبو القلوب ، ولكنهم من ضيق التربية بحيث لا يستطيعون السمو عن المحيط المنافر لهم ، أو إخضاع ظروفه لمنفعتهم ، واستخلاص ما فيه من خير ، والإعراض عن شره . فهم لا ينتقمون من جو الصعيد المقبض ووحدته القاتلة إلا فى أنفسهم . يسهلون لها المنزلق، ويتردون فى عناد وتكبر إلى الهاوية . يبدأ أحدهم بكأس مع أصدقائه ، وينتهى بسكير مدمن . الخمر أهم خزين بيته . . ويلعب آخر للتسلى ، فيصبح مقامراً يسهر للصبح ، ويوقف حياته على تشمم أخبار « البرتيتات » . ثم من وراء ذلك من ينساق إلى اختلاس هين، أو سرقة تعد بالقروش . منهم من ينجو ومنهم من ينتهى إلى السجن . .

ليست سقطة عباس إلا مثلا آخر على ضحايا الصعيد . لا ينفرد وحـــده بهذا الجرم . فكم فى الأرياف من مكاتب بريد يفتح

موظفوها الجوابات ، لا يكتشف منهم إلا اللصوص الذين يتصيدون أوراق البنكنوت ، وتبقى جرائم الباقى مستورة ؟ بعضها تجسس على عدو معروف . وبعضها نتيجة عقلية موظف يعيش فى وهم دائم من الدسائس والوشايات والاتهامات ، فيحتاط لنفسه ويقرأ خطابات من يتوقع منهم الشر . . .

هذه الأصناف كلها يحتقرها حسنى وينفيها عن دائرة الإنسانية التى يتعلق بها . . فهل عباس من هؤلاء ؟ جريمته واحدة . وقد يقول متشكك إنها أثر مما فى طيات نفسه من قبح مكتوم ، ولكن حسنى يثق بإلهام ووجدان فى طهارة صديقه . إن جريمته ليست إلا ختاما فجيعا لاصطدام عباس ، ربيب قهاوى القاهرة وشوارعها ، بالصعيد وطينه وفلاحيه . طبيعته قبل أن تفسد تكسرت ، فهو أحسن حظاً من بقية الضحايا الذين يموتون على مهل عفناً .

٤

« كنت فى الأول أفتح الجواب اللى يجى تحت ايدى بالصدفة ، كله عندى زى بعضه ، تسلية والسلام، لقيتها كلها سخيفة ، بقيت بعد كده أنقى جوابات ناس أعرفهم . من دول مرة عجوزة تيجى كل يوم الصبح تسأل بنفسها على جواباتها . . . . »

" كل الناس يواجهون الشباك ، أما هى فجاءت ووقفت بجنب ، منكمشة ، الحياء يقطر منها . سألها عن حاجتها فلم تغير موقفها

وكلمته . صوت مدلل ناعم ، ولهجة خليعة بلا سبب ، كأنها تعرفه بل كأن بينهما علاقة ، وليست هذه أول مرة يراها فيها . . .

ما ليش جوابات النهارده ؟ مالك مصهين على .. ياخوى .. دا الغشم ما كنش كده » .

أم أحمد تتعصب بمنديل « بقوية مفلفل » وتغطى وجهها بطرف طرحتها قلما تزيحه ، حتى يظل لها بفضل رقة صوتها جمال الظن والحدس على أنها إذا تكلمت تضعف من جديد أمام اعتقادها فى نفسها وفى حرها الذى لا يزول ، فهى تزيح لمحدثها طرف طرحتها لحظة واحدة . ثم تعود لصوابها وتغطى وجهها ثانية فى حركة سريعة ، كلها جبن وتردد ، يتمثل فيها نزاع حاد لا ينتهى بين قوى متكافئة : غرورها وحصافتها .

ناولها خطابها ، فمدت له يداً ، من حافة أظافرها إلى الرسغ فروع من الوشم مغضنة ناشفة ، لم تفلح الحناء فى تغطية زرقتها .

— « من إيد ما أعدمهاش أبدا . . يمتعك بشبابك ، تتهنى » .
أخذت تجيئه كل صباح فلا يخيب أملها ، جوابها مثلها فى المواظبة . لم يتأخر فى يوم . . الظرف الواحد ، وختم البريد لا يتغير (مصر) والخط على الظرف مهذب ، والكلام مختصر ، يكاد ينفرد عن بقية الخطابات بهذه الميزة .

« كل ده خلانى أهتم بالولية دى . . غايته ح تكون إيه ؟ الجوابات دى من قريب لها ؟ مش معقول . . لما جت البوسطة

وشفت جوابها ، حاجة خلتنى مش قادر أسيبه من إيدى ..بصنعة لطافةبشويش على السبرتو شوية شوية لما فتحته .. فكرك لقيت إيه ؟ جواب حب من الدرجة الأولى . . فيه بوس وأحضان وشكوى وكلام فارغ زى ده . . ضحكت لما انفلقت . أول الجواب (حبيبتى ونور عينى) . . مش مصيبة ان الولية دى تبقى لسه لدلوقتى نور عين ؟ لكن بقيت مش مصدق ، مش داخله راسى . لازم المسألة فيها سر تانى . إزاى أوصل له ؟ سهل خالص . بصيت للإمضاء لقيتها خليل . . جه فى بالى طوالى ظرف دايما ألاقيه فى الصادر العنوان إللى عليه :

« حضرة المحترم الفاضل خليل إبراهيم أفندى

يحفظ بشباك بوستة الفجالة مصر »

لازم هوا . . ح يكون فى مصر كام خليل لهم جوابات من كوم النحل ما فيش غيره فى الغالب . . تانى يوم فتشت الصادر ع الجواب اللى فى بالى لقيته . . الظرف مكتوب بالكوبيا . خط منتظم لكن حروفه واطية . حاجة نسوانى كده . . زى ما عملت فى الأول عملت فى التانى . فتحته . لقيت رد جواب أم أحمد كله حب هو واخر لكن الإمضاء لا أم أحمد ولا أم دياولو . . كلمة واحدة معقولة : جميلة عرفت إنى أنامش وحدى فى البلد . . أم أحمد عامله بوسطجى معاى .تانى يوم لما جت لى ضحكت عليها وقلت لها :

– لك جواب مسوكر . . من فضلك أكتبى اسمك هنا .

— يابنى ما تضحككش على . . دانت غالى عندى قوى وحياة شرفك ختمى نسيته فى البيت .

فتأكدت . . ولما قلت لها دى كانت غلطة منى ابتسمت قوى افتكرت إنى هزرت وياها مخصوص .

تتبعت مراسلات جميلة وخليل . . هى اللى تستنى الجوابات الثانية . مابقتش أفتح منها ولا جواب » .

٥

فى مبدأ الأمر بدأ يشك أنها جوابات حب عادية كثيرة الوقوع بين فتى يختفى وراء شباك البريد وفتاة وراء عجوز ، وأن عباراتها متكررة وفى أغلب الأحيان متشابهة . ولو كان شعور عباس مقصوراً على ماتراه عيناه ، لأمله ما بها من خلط بين الحب وأحاديث أخرى سخيفة. فليس شىء أقرب لأصحاب الطبيعة النارية من الملل ، لديهم كل ثورة متعالية قصيرة العمر ، يعقبها هدوء كأنه الموت . ولكنه فوق ذلك — ذو قلب حساس . اهتز كالعصا التى تكتشف المناجم المخبأة . فوق كنوزها المدفونة بين السطور ، شىء خفى فى هذه الخطابات تعلق بقلبه ، فأصبح لا يستطيع الخلاص منها . .

بعد مدة بدأ بينه وبين الفتى نفور . . فهو يكتب بالحبر ، خطه جميل ، ولكن أثر التصنع والمجهود فيه ظاهر . شعر عباس أنه أمام شخص (يحسن خطه) أكثر مما يعبر عن شىء . يبدأ كل مرة

من طرف الورقة المثنى ، وبضع التاريخ دائماً فى أول الصفحة من اليمين ، ودائماً بالخط النسخ يحيط إمضاءه بخط يخرج من حرف اللام ويرسم فوقه دائرة صغيرة تبدأ منها دائرة أخرى كبيرة تشمل الكلمة كلها . فى كل جواب منه فراغ أبيض قصرت عنه أفكاره أكثر أحاديثه عن حركات مادية . من أوائل الخطابات التى فتحها عباس ، خطاب يحكى لها فسحة فى القناطر الخيرية مع بعض أصحابه بدأه باللغة العامية ، فلما جاء للحدائق وصفها لها بلغة فصحى فيها كثير من السجع . كل هذه المظاهر جعلت عباس يعتقد أن خليل شخصية ضحضاحة قوامها الغرور . . وظن فى مبدأ الأمر أنه لا بد أن يكون تلميذا .

ضاعت قيمة جوابات خليل فى نظره ، ولم يبق له إلا جوابات جميلة . لم يكن تقديره لها من أثر المقارنة بين الاثنين . فأصحاب الطبيعة الصافية ولو أنها مشتعلة كعباس ، لديهم استعدادٌ موهوب يفتح أعينهم للإحساس الصادق . . وكانت كل مظاهر جواباتها تدل على أن حب جميلة مخلص غير كاذب ، يشغل حياتها ويأخذ تملها كل تفكيرها .. وقد ساعدتها الظروف على أن تكون كتابتها أرقى . فليس فى القرى للفتاة حياة مادية تستطيع أن تتحدث عنها . هى فى أغلب الأمر حبيسة دارها. فاقتصرت جميلة على وصف شعورها وأفكارها تقص له — من جديد — ذكريات قديمة بينها . وليس من جواب إلا تضمنه أملا لها فى المستقبل أو ثقتها بعدالة الله . لم تحاول

مرة أن تكتب باللغة الفصحى، مع أن الدلائل تدل على أنها تعرفها .. كتابتها تنتهى دائماً - وكأنها مرغمة - فى آخر الورقة . خطاباتها كالظروف مكتوبة بقلم كوبيا . مرة تبدأ من الطرف المثنى ، ومرة من الطرف المفرد . جواباتها على الورق المسطر بالمستطيلات ، وفى بعض الأحيان تكتب على ورقة كراسة . كثيرا ما تهمل التاريخ وكثيرا ما يكون فى خطها حروف أكثر ظهورا من غيرها بتبلل الورق ، دلالة على أنها تسهو فى بعض الأحيان وتضع القلم فى فمها تبدأ الجواب بحروف متقاربة، وتنتهى به وقد اتسعت. لاحظ عباس أن هذه الظاهرة تتكرر فى الخطاب الواحد ، فاستنتج أنها تكتب الجواب فى بعض الأحيان على جلسات متعددة ، ومع ذلك لا يستطيع من يقرأه أن يلحظ أى انقطاع فى روحه . الكلمة التى قامت عنها ، هى فى ذهنها عندما تعود .

٦

لم يكن عباس جاسوساً دنيئاً يستمد كل لذاته من اطلاعه — مجرد اطلاعه — على أسرار يظنها صاحبها فى مأمن ، سواء أكانت أسراراً ذات خطر أم تافهة . بعض النسوة يقفن بالساعات وراء الستائر يراقبن جيرانهن يؤدين خدمة المنزل . فهو لو كان كذلك لارتد شعوره ساعة فتح الجواب وانحصر فى نفسه لايهمه — بل وربما لا يفهم — مايقع عليه بصره . يغمره نجاحه فى معرفته للسر بالغبطة المريضة ، على وجهه ضحكة صفراء نكراء ، خبيثة ، ممروزة ، هى أكثر ماتكون تهلل الشيطان الذى يتلبسه .

أما هو فبعيد عن هذا . قلما يفكر ساعتئذ فى نفسه، إذ يشعر أنه انتصر . ليس على وجهه أثر للغبطة ، بل بالعكس ، شىء فى هذه الخطابات يهصر قلبه ويميت شفتيه . أهو من للدمه على جرمه ؟ أم لأنه استفاق لأول مرة فى حياته على ضجة الدنيا ، تخنق طيها نغمات قد تكون خافتة ، ولكنها أصيلة ! هل كان يظن أن أسطح القش وجدران الطين فى كوم النحل تخفى قلباً متوقداً ، يتفطر كل يوم على الورق ، ولا يهمد أو يلوى ؟ كيف احتالت جميلة حتى ضمنت أم أحمد فى صفها ؟ وسط أى الصعاب تم جوابها ؟ يعتقد عباس أنها تكتب بالكوبيا ، لأن القلم أسهل فى الإخفاء من الريشة والدواة .

ما كان يظنه لهواً وتسلية انقلب إلى شغل شاغل ورباط وثيق . أصبحت هذه الخطابات جزءاً من حياة عباس ، لايستطيع أن يستغنى عنها . هو من قبل مجىء أم أحمد يفتش عن جوابها ، ولايرسل البريد إلا بعد أن يتأكد أن ليس به جوابات من جميلة . فإذا ظفر به وضعه فى جيبه وتملكته حمى العاشق ، لايطيق مرور الساعات التى تفصله عن اللقاء .

فعباس يختار لقراءة هذه الجوابات ساعة متأخرة من الليل ، وربما بين كأسين . يجلس بجوار النافذة ، يسند ذراعه على مائدته ذات الأرجل الثلاث ، وجهه فى غمرة ضوء المصباح ، ولكن فى تقاطيعه الساهمة حزن بعيد عن الانقباض مستريح غير قلق . خلفه كائن قريب منه ، إن أراد أن يراه ، فما عليه إلا أن يدير للنافذة وجهه فيقابله .

بيل فى ظلمة العمى ، تلفع به الكون مرغماً ، هبط على الفضاء حملا ثقيلا ، أحاط بالأرض كالقيد ، غطى الحقول كالكفن ولف القرى كالضماد . وانحدر - ولاحد لاتساعه - إلى الشقوق فاحتواها . ثم تلفت يبحث عن مداخل النفوس التى يعلم أنها تستقبله وتتشربه فاحتلها يتمطى فيها . هو الآن فى كل زورة لكوم النحل يتسلل كاللص إلى قلب عباس ، على غفلة منه ، كصندوق الراديو لاتعلم السر الذى يحتويه . . إلا إذا ضغطت يده على مفتاحه .

لاينتهى عباس من قراءته حتى يغشاه الوجوم . فى قلبه وسواس خفى يشعر أنه صادق لايخطىء يهمس له أنه يطل على الفصول الممهدة للمأساه ، ويكاد يحس بيد خفية تجذبه شيئاً فشيئاً من مخبأ المتفرج المجهول ، إلى حلقة النزاع التى تضم رأسين لايشعران بالسيف المعلق فوقهما . . حتى يصبح الخطر واحداً للجميع .

فى الحياة مصائد تعلق بها قدم الإنسان من حيث لايحتسب ، فلا يستطيع الخلاص منها وإن أجهد نفسه . فهل كان يخطر على بال عباس عندما فتح أول جواب أن قدر هذه المراسلات سيقاطع قدره ويختلط الاثنان جميعاً ؟ أن تكون فى أول الأمر لعبته ، ثم فى النهاية مصرعه ؟ لم تصبح مراسلات بين اثنين . . بل بين ثلاثة ولعل أكثرهم تأثراً بها من لم يخط فيها حرفاً .

« تقلت فى الشرب شوية . وفى الوقت ده بقيت أنام الليل وأنا خايف ، وجاءت لى أحلام مزعجة . وقمت مرة وأنا مفزوع أصرخ .

مافيش حد فى البيت غيرى . آخر ماغلبت اترجيت غفير الدرك أنه يبقى دايما موالينى . فات على كده حسبة ثلاثة أشهر وأنا مايفوتنيش جواب واحد . كنت الأول أخمن حاجات كتيرة ، لكن بعدين فهمت من الجوابات تاريخ البلت دى من أوله لآخره ، لكن من هى ،؟ ماعرفتهاش أبداً ولاشفتهاش . كنت خايف لو لمحت لأم أحمد تكون مرة بنت حنت ، تفقسنى وتودينى فى داهية مرة ملعب مش مساهل . اتشممت من هنا وهنا عرفت أنها تدخل كل بيوت البلد تقريباً . ازاى أعرف ؟ مش ممكن . بقيت أبص للبنات اللى ماشيين . كلهم الطرحة على وشهم ، ملفوفين فى ملايات سودا ، مصبوغة منيلة تخرخش زى الورق . يمشو لازقين فى الحيطة زى اللى راح يدخلوا فيها . ما تلمحش وش واحدة منهم . بين فيهم تكون جميلة . حاجه تجنن . كل واحده أشوفها أحسن أن قلبى ينتفض ، مش يمكن تكون هى ؟

كل اللى عرفته كان على أم أحمد . كل مااستفهم الاقى ناس كتير يعرفوها ويحكولى عنها . ولما فهمت السبب فى إن جوابات خليل تيجى عليها ، عرفت المسألة من أولها لآخرها » .

الفصل الثالث *

جميلة وبنت ناس

١

كوم النحل من أعمال مركز . . . بأسيوط . ليس فيها أحد يستطيع أن يجيب : هل النحل هو الذى خلق البلدة ، أم هى التى خلقت لنفسها هذه التسمية ؟ كل مايظفر به الباحث سطر ونصف فى خطط على مبارك : « مشهورة بجودة عسلها . بينها وبين مركز . . . . خمسة عشر كيلو متراً » . لم يقرظها باسم أسرة واحدة مشهورة ، ولكن الظواهر تدل على أنها بلدة قديمة . قد يرجع سبب إهمالها إلى أن آثارها لم تكتشف بعد . فهى لم تتأثر بالطوفان العربى ، وتكاد تنفرد عن بقية بلاد المركز بأن اسمها ليس مسبوقاً « ببنى » ، أو ينم عن اسم قبيلة . هى واقعة على الجسر « الطوالى » . بعدها عن الجبل نفور ظاهر عن حياة البدو . وارتفاعها عن وسط الحوض ترفع عن الزراعة .

والأغلب أنها ظلت طول عمرها فى تجارات تعيش زمناً ثم تختفى. فلما وقعت على النحل – ولا يعلم متى – لم تستطع ان تتملص من قبضته. وشملها هذا الحيوان الخنثى العجيب ضمن مملكته، فأدخلها خليته لا ليغطيها بقيته المرمرية، بل بشهرته واسمه.

وسال بعد ذلك تحت مصر، وذوت صناعاتها، وجاء يوم تفرق النحل فيه من خلاياه إلى الثقوب وفجوات الشجر، ثم باعه الكون وغاب. لم يبق من هذا التاريخ سوى الاسم، وبعض خليات من الطين على أسطح قليلة. يرزق منها ومعاشها متوقف عليها، ببوت قبطية تربى النحل وراثة لا اختياراً عن تلقين لا عن سعى. تجارتهم محاطة بسرهم ككهنة دين هدمت محاريبه فى نظر بقية السكان الذين غمرتهم الزراعة فى ذلها واستعبادها. فليست تملك كوم النحل – على اتساعها وكثرة سكانها – سوى الأقل من عشر زمامها، والباقى وقف لسلالة من الشركس لها قصر خرب فى البندر.

من تجار النحل فى البلدة المعلم سلامة. رجل يقول عنه المسلمون إنه «عضمة زرقة»، ومع ذلك لا يشعرون إذا جالسوه بأى كره له. لا لأنه بحكم مهنته بعيد عن المساقى ومشاجراتها والحدود وخصوماتها، والمولشى تنزل فى البرسيم، والماء يمر بالقوة، بل لأنه رغم ما يقال عن شيبنه الزرقاء (أيضاً!) لا يكاد يفترق فى مظهره، فى أخلاقه وعاداته، عن بقية المسلمين. اللبس واحد، والعمامة فوق رأسه عليها المقدار ذاته من التراب. تتحجب امرأته فى الطريق كأهل البلد.

هو أرثوذكسى ، يزهو بزيارات القسيس له ، ويأخذ أسرته كلها للكنيسة ، فيجلس هو تحت ، وتجلس امرأته وبنته الصغيرة جميلة فى الشرفة محجبة بالشبش. ويبدأ الجميع فى ترتيل صلاة ، بعضهم يقرؤها من الكتاب ، وبعضهم لا يحفظ النغمة فهو متردد ، ولكنه يسير بسهولة بعد ذلك عندما ينتظم الجميع ويحملونه معهم ، يقودهم المعلم سلامة ، يحفظ كل الصلوات نغماً وكلاماً ، عن ظهر قلب . صوته أجش غليظ ، يقال عنه إنه كان فى شبابه أحلى أصوات المصلين ، ثم أتلفه الكبر والدخان . وينسى المعلم سلامة نفسه ، ويحنى رأسه على صدره . ثم ينتبه بين حين وآخر لصوت رفيع ، كله تضرع وخشوع ، هو صوت جميلة ، ترث أباها فى ذوقه الموسيقى ، لا يشعر به أحد ، ولكن أذن الأب تصطاده من وسط التيار .

وفى يوم هبط البلد مبشر بروتستانتى من أسيوط . وقف فى الشارع يعظ ، ثم اتصل بالأقلية القليلة التى على مذهبه ، وتوصل منها إلى الاختلاط ببقية الأقباط . فى يده أمينة يلوح بها ويغرى : « فى أسيوط مدرسة للعيال وللبنات مجانية ، قراية وكتابة ، وشغل الإبرة والمطبخ . إنجليزى من الأصلى ، المستر كارتر الأمريكانى والمدام أليس . مين يقبل ؟ مين عاوز ؟ فيها قسم داخلى ... »

الحب الأبوى وحده هو الذى زحزح المعلم سلامة عن تعصبه ، وأسلم جميلة ، ولم تبلغ العاشرة ، وقلبه يفيض بالأمل أنها فى يوم ما تكون معلمة فى المدرسة التى تدخلها الآن تلميذة .

خرجت جميلة من سجن كوم النحل إلى بحبوحة المدرسة . بعيدة عن أهلها ، وسط زميلات شياطين ، لا تعطيهن المعلمة ظهرها حتى يعلو ضجيجهن كلغو الحمام ، حشوه ضحكات وأصوات غضب كله دلال . يداعبنها ويلاعبنها يقتلن الوقت فى الفسح ، ويتبادلن خلسة روايات كل سحرها من وهم قارئها .

فى نهاية كل سنة تعود جميلة لتتشبع من « برام الرز بالحمام » ، « وتشبرق ـ ياحبة عينى ! » وهى محرومة فى أسيوط .

ويوم يمر ويوم يأتى ، والفتاة النحلية القصيرة ، يتمشى سر الحياة فى جسمها ، فينبت ثدياها ، وتعرف الخجل ، وغض العين ، وصعوبة النوم . . .

وأتمت جميلة السنة النهائية ، ودعى المعلم سلامة لحفلة توزيع الشهادات ، فجاء فى أحسن ثيابه . كيف يستطيع بعد هذه الفرحة أن يرفض طلبها البسيط ؟ يصحبها إلى « النخيلة » ، لأنها مشتاقة (قوى قوى) لخالتها . أسبوع واحد تمضيه هناك ثم تعود لكوم النحل .

ــ « لكن مش ح سيبك تغيبى هناك . أملك عاوزاك بالحيل .. »

٢

وأخذها إلى « النخيلة » . لا يعرف أن سبب سفرها ليس شوقها لخالتها ، بل تنفيذا لاتفاق سابق بينها وبين إحدى التلميذات من هذه البلدة . وعد له حرمته لأنه موثق بيمين . فبين جميلة ومريم « أختى

وحبيبتى طول العمر » ، عهد كله إيمان وغيرة وعتاب . عشق حاد لاتعرفه سوى مدارس البنات .

عن طريق مريم تعرفت جميلة فى النخيلة بأخيها خليل . بين الأقباط — داخل المنازل — قدر بسيط من السفور والاختلاط . هو أكثر الأمر محصور بين الأقرباء .

قد تتمتع القبطية فى الصعيد بالسفور . ، ولكن عدد من يعرفها فى النهاية قلما يزيد عن الذين يرونها لأول مرة . ولولا تردد مريم على المنزل واكتسابها لقلب الخالة ، لما تمكنت جميلة أن ترى خليل أو تجتمع به — فيما بعد — فى خلوة بإحدى الغرف على غفلة من خالتها .

هو أول شاب تراه جميلة عن قرب ، ولما يمض على اشتعال جذوة شبابها وقت طويل . وزاده قيمة فى نظرها أنه أخو مريم « أختى وحبيبتى طول العمر » . خدع نفسها إكبارها للصديقة ، فانساقت دون أن تشعر إلى الإعجاب بالأخ . ولكن هذه كلها ظروف خارجية ما كانت تستطيع أن تتسلط وحدها على قلب جميلة لولا أن ساعدها شارب صغير — صغير جداً — شعر خفيف ، يزين شفته . فى حديثه لثغة لا ينساها من يسمعها . خده لم يعرف الموسى إلا من وقت قريب . يحمر ويصفر إذا تلاقى نظراهما .

كان الحديث بينهما فى أول الأمر صعباً ، غير أنه سهل بعد ذلك لما قص عليها أنه درس مثلها . (فهو بروتستانتى) فى مدارس

الأمريكان ، وأن فرحه بإتمام دروسه لايقل عن فرحها ، فهو موعود بوظيفة مدرس فى إحدى مدارس الأقباط بالإسكندرية ، وسيسافر إليها عن قريب . وأراها قلم الأبنوس الذى فاز به لحصوله على أعلى درجة في اللغة الانجليزية . هل تتكلمها مثله ؟ وأسرع يقترح عليها ، كعادة التلاميذ ، أن يتكلما بها ، .وهكذا . وتنقل الحديث بينهما فإذا بعقلية الفتى فى مستوى عقلية الفتاة . أغلب ذكرياتهما عن المدرسة فكاهتها مستمدة من التلاميذ والمدرسين ومختلف شذوذهم . وأزال هذا التشابه ما بينها من كلفة . وشعر خليل ، بعد هذه الجلسة ، بميل معظمه صبيانى نحو جميلة ، وزاد تردده على المنزل متعمداً الانفراد بها . أمسك يدها . ثم لمس ثديها ، وقبلها . ونسيا نفسيهما فى إحدى هذه الفورات واجتبى منها الشباب جزيته .

لما انتهت السكرة ، لم يستفيقا على منظر مقبض أو قلب ملتاع . بعد أيام قليلة استدعى لوظيفته بالإسكندرية . وأخبرتها مريم أن أمنية أمها أن تزوجه فى أقرب الفرص . ووعدها خليل أن يعود بعد شهر واحد لكوم النحل ويخطبها من أبيها . ستبيع أمه عشرة قراريط تملكها ، ولا يظن أن أباها يعارض أو يرفض . وكادت جميلة تقبض على سعادتها .

ظهر أول خلاف بين طبيعتيها عند اقتراب السفر . كانت تعتقد أن زحمة ترتيب « الشنطة » وتوديع الأقرباء لا يجوز لها أن تغطى على اهتمام الحبيب بحبيبته . فى حين أنه شملها ضمن هذه المشاغل لا يدرك إحساسه ان اعتذاراه بإحداها يتنقصه فى نظرها ولا يبرئه .

على أنه استطاع أن يختلى بها ، وكرر لها ، وكان صادقاً ، كل يمين . وجسم لها المستقبل مرة أخرى فى صورة سعيدة محققة . مسألة وقت لا غير . ثم هفا به لسوء حظه طبعه الصبيانى ، وطلبها من جديد وكانت جميلة واثقة من وعوده ، وربما لم تكن أقل منه ميلا لطلبه ولكنها أثناء نشوتها ، أشرق عليها إدراك أشبه بالإلهام ، أحست معه بفراغ بارد يدب فى قلبها فيطفئ من هيجانه وناره . فى الحاح خليل عليها لتجيبه إلى طلبه وهو على أهبة السفر — دليل مؤكد على خفته وقصور نظرة عند موطئ قدميه . يهس لها وسواسها : لم العجلة مادام سيعود ؟ أهو صرح عال على رمل ؟ هزة واحدة هدمته حولها حطاماً . ودهش الفتى المتعب عندما رآها تتشبث برقبته . تحوطها بذراعيها ، وتسند رأسها على كتفه ثم تحضنه . تحضنه إلى صدرها وتهذى كالمحمومة :

— خليل ! خليل ! خليل !

لم يتعب خليل فى تهدئتها . فهى التى استفاقت إلى عبث ما بدا لها من جديد أنه وهم متسرع . وعاد إليها ، بعد جهد ، اطمئنانها على مستقبلها ووثوقها بخليل .

وبدآ يتكلمان عن فترة الغياب ، واتفقا على أن يتكاتبا . فأخرج خليل من جيبه ورقة وقلماً وكتب لها عنوانه بالاسكندرية ، فهو سينزل ضيفاً على أحد أقربائه ، أخذتها جميلة وقرأتها . ثم التفتت إليه تبتسم ، وكأنها تعاتبه . مزقت الورقة أمامه :

يستحيل أنساه .. ما تخافش .

ولكن كيف يرد عليها ؟ أنها ستغادر النخيلة عن قريب . وفى كوم النحل لا تستطيع أن تستلم خطابات باسمها بدون علم أبيها . إذن فلتكتب له ، فهذا لا يصعب عليها ، وليصبر هو لا يرد عليها حتى تعود لبلدها ، وتهديه إلى طريقة تمكنه من مراسلتها .

٣

فى مسائه الأخير جاءها ليودعها . قلق السفر يتملكه ، فهو عجل مشرق الوجه لايستقر على فكرة . لم تصدمه الفتاة بوجه عبوس أو عيون دامعة ، بل وجدت نفسها تشاركه ، صادقة طيبة النفس ، بهجته . هل يستطيع أن يحدد لها ميعادا لرجوعه لكوم النحل ؟ بعد أول مرة يقبض فيها مرتبه من عرق جبينه . لن يغيب أكثر من شهر واحد . هل سمعت عن فلتس معوض ؟ لا ؟ إنه من أقربائه البعداء ، وسينزل لديه مدة إقامته فى كوم النحل

ولما هم ينصرف أمسك خليل بيديها ووضعهما على كتفيه ، ثم طوق خصرها . عيناها فى عينيه . السعادة التى تغمره صفت طبيعته من التصنع والالتفات للنفس ، ولذلك نفذت نظرته إلى قلبها وطوى شعوره شعورها .

« أحلف لك بإيه إنى مش ح أخونك فى الاسكندرية . إوع تفتكرى .

ـ أنا بقيت فى إيدك ..اعمل فىاللى تعمله .

إنتى خايفة ؟

لا بس مش عارفه ح أصبر ازاى .

كل ما تفتكرى فى اكتبى لى جواب . بس جوابات طويلة مليانة . عايزك تكتبى لى كل يوم ولو حته ،وأنا تو ما ح تبعتيلى عنوان ح اكتب لك على كل حاجة » .

وجلس واجلسها على ركبتيه . قبلها على عنقها وعينيها وبين ضفائرها . ثم توالت قبلاته حارة هوجاء هنا وهناك .. لا يدريان كم من الوقت مر عليهما . ولا كيف تنتهى هذه القبلات .

حركة رجل وصوت باب ، قطعا عليهما الخلوة . وقام خليل .. آخر ما رأته منه وجهه يديره لها وهو يخرج .وجه طفل سعيد فرح .

بعد يومين كتبت له من النخيلة جوابها الأول .

٤

أقفرت النخيلة فأرسلت لأبيها أن يأتى ويأخذها .. وعادت لكوم النحل معها حقيبتها « برانيطو كتب » : أعجوبتان فى منازل الطين والقش ..

وتوالت على جميلة زيارات أقاربها وجيرانها ، لا تجد وقتاً تفكر فيه كيف تدبر طريقة يراسلها بها خليل . . وكتبت له جوابين تخبره بأمرها ، وتطلب إليه أن يصبر قليلا .

وبعد أيام كانت فى مجلس كله فتيات من سنها ، ينصتن لفتاة تفضى لهن بمخاوف هى على كل حال لذيذة ، بدليل ما فى وجوه المستمعات من تطلع وعيونهن من بريق . دخلتها بعد يومين ، وهى لا تدرى شيئاً من أمر أول ليلة مع زوجها . ماذا سيحل بها ، هى خائفة مضطربة . توالت عليها ردود كلها عن سماع أو اجتهاد . وكانت حجتهن جميعا واستنادهن الوحيد (أم أحمد هى اللى قالت). هو اسم لا تجهله جميلة ، وإن لم تر صاحبته من قبل . لا تعرف عنها الكثير .. ولكنها لم تقم من المجلس حتى علمت كل أخبارها .

هى إمرأة تزوجت أربع مرات . فارقها كل زوج بطلاق بعد عشرة قصيرة . وتسنى لها بفضل هذه المجموعة أن تشترى بما جمعته من متأخر المهور فداناً ونصف جاموسة . هى ما شطة « بلانة » فى الأفراح ، حادية بالغناء عند طلوع الحجاج ، والمقدسين! – أو رجوعهم . داية إن استغاث بها جار قريب ، تعرف وصفات ، وتفسر الأحلام وتحسب النجم تفوح منها دائما رائحة الماورد ، كل مناسبة اجتماعية تكون فيها أم أحمد بلا دعوة .. إلا فى المآتم ، فهى لا تطيقها . ولعل ذلك لأنها لم تخلف من زواجها المتوالى ، ولم تفجع ، كمعظم المتطوعات باللطم و « الصوات » ، فى ولد عزيز ..

إذا قابلت فتاة كلمتها رأساً ، ولو كانت تعرفها لأول مرة ، عن جسمها وثوبها وشعرها وحمامها . وإن كانت إمرأة سألتها عن زوجها وعاداته ونوبات مرضه وهجرانه .. كم فى كوم النحل

من رجال يجهلون أن زوجاتهم تلقين عن أم أحمد نصائح أشبه بالدروس . فمعظم النساء يعرفنها ، ولكن القليل منهن من تعلم أن أم أحمد قد تمثل فى بعض الأحيان — عندما تكون « رايقة» — مع التلميذة نصائحها ، لتكون دروسها عملية أقرب للفهم ، وأن هذه الدروس هى سبب اطمئنان فتيات كثيرات فى لياليهن الأولى مع أزواجهن ، أو ارتفاع قيمة زوجات فى نظر رجالهن بعد هبوط وإعراض

استطاعت جميلة أن تتصل بأم أحمد . ورغم سمعة هذه المرأة — أو ربما بسببها — شعرت بوثوق شديد بها .

أفضت لها بقصتها ، وإن كتمت عنها زلتها ، وبثتها حيرتها فى شأن الجوابات ، فكانت أم أحمد هى التى اقترحت عليها أن يكتب لها خليل على عنوانها هى .. ستحفظ الرد من « بجوه حبابى عينى .. » وتوصله لها .

وعلم خليل بالعنوان .. واستلمت جميلة جوابه الأول كاللقية .. فقليل من الناس من يستطيع أن يكتب خمسة جوابات قبل أن يصله الرد الأول .

ليس يصعب عليها أن تكتب الجواب بقلم كوبيا خفية فى منزلها . أحياناً تعطى الجواب لأم أحمد ، وهى التى توصله للبريد ، وأحيانا تكلف به أحد صبيان الحارة على ظن أنه من المنزل وبعلم أبيها .. وهذا لأن مكتب البريد فى السوق أمامه دكاكين ، وأناس

جالسون أقوياء العيون ، وهى تخشى أن يعرفها أحد ، فيتصل بعلم أبيها خبر ترددها على المكتب وينفضح سرها .

فى أول الأمر اقتصر حديث خليل على حياته المدرسية وعلاقته بالتلاميذ ، وتعبه من الدروس ، ثم بشرها فى خطاب تال أن ناظر المدرسة مسرور من اجتهاده ومواظبته ، وأنه أوصى بمنحه علاوة وبترقيته .. وأنهم لذلك اختاروه لوظيفة خلت بمدارس القاهرة، وسيسافر إليها عن قريب .. أليس هذا من بركاتها عليه ؟

لم يمض وقت طويل حتى جاءها خطابه من القاهرة . هو فى وظيفته الجديدة منذ يومين . ما أتعب النقل وزحمة السفر ! ولكنه مسرور . وطلب منها أن تراسله منذ اليوم على شباك بريد الفجالة لأنه يستطيع أن يمر هناك كل يوم ويستلم خطاباتها أولا بأول .

وانتظمت المراسلة بينهما .

الفصل الرابع •

فرحة ماتمت

١

وفى خليل بوعده ، وجاء بعد شهرين لكوم النحل ، ونزل لدى قريبه فلتس معوض . يظلم هذا الشاب من يتهمه بأنه غشاش أو مخادع . كل ما فى الأمر أنه قليل التجربة ، يقدم بسذاجة على أدق المواقف ، جاهلا بما فى شعائر الحياة من صلابة . فقد جاء لكوم النحل مفلس اليدين ، لأن أمه لم تبع الطين . لا يدرى بالضبط إلى أى مدى يكون مسعاه . كل ما أخبر به أمه أنه سيخطب جميلة . يخطبها فقط من أبيها .

وقابل خليل مع قريبه فلتس المعلم سلامة ، وفاتحه برغبته فى الزواج من جميلة . فارقهما الأب وهو فاهم أن المسألة خطوبة فقط ،

لأنه ينتظر أن يكون مع الشاب أمه أو أحد أعمامه . ولكنه عندما أخبر زوجته الخبر ، سهلت عليه أن يتم الزواج كله مرة واحدة. يجوز أن تكون أم العريس مريضة أو عجوزا لا تتحرك ويتلف أمل البنت. ثم ما داعي الانتظار ؟ وكانت جميلة بعاطفة نصفها محبة ونصفها استبداد فقد ضمت أمها إلى صفها بل كانت تحركها طوع إرادتها .

في الجلسة الثانية لم يشعر خليل أنه ينساق إلى التكلم في الإكليل وتاريخه . ثم وقفت المفاوضة مرة أخرى عندما فهم المعلم سلامة أن خليل لم يأت بالمهر . مرة أخرى زالت هذه المشكلة في منزله.. وقبل بإلحاح زوجته أن يعقد الإكليل ، على ألا تسافر جميلة للقاهرة إلا بعد دفع المهر ، فهو لن يخسر شيئا الآن. ولن يبدأ في شراء الجهاز — من ملابس وصيغة — إلا عند قبض النقود .

وتحركت المساعي من جديد .. وقابل الجميع القسيس ، فإذا هو ماء بارد يصب بلا رحمة على نار عجلتهم.. العريس بروتستانتي والعروسة أرثوذكسية .. فلا بد من أن يكتب لمصر ليستأذن هل جاء بشهادة من كنيسته بالنخيلة أنه غير متزوج ؟ إلخ إلخ . شروط شكلية ، ولكنها تستلزم وقتاً . وخليل في إجازة قصيرة قاربت الانتهاء . إذن يعود مرة أخرى. لم يستطع أن يختلي بجميلة قبل سفره . لم تأس على ما فاتها ، فأمامها المراسلة بينهما ، سيتفاهمان بها من جديد ، وستبث الورق كل ما كانت تود أن تقوله .

ولما انتهت هذه الحلبة بسفر خليل ، أحس المعلم سلامة أنه يستيقظ من حلم . أين هو وقت أن كان يساق إلى كل هذه التسهيلات لأجل هذا الفتى الغريب عنه ؟ وحمد الله فى سره أن المسألة لم تتم ، يلزمها أولا تكملة ما فى شكلها الخارجى من نقص يلحظه الناس . على الأقل تأتى أمه لترى وجهها ، أو يقدم لها خاتماً. ثم هو يريد أن يسأل بعض معارفه فى القاهرة عن حقيقة مرتبه ، وعن مركزه فى المدرسة . ولو درى المعلم سلامة أن فى بطن ابنته جنيناً ينمو يوماً بعد يوم ، كعقرب الساعة لا ترى العين حركته ، وهو دائب السير لمصير محتوم ، لما حمد الله كما فعل ، ولأكل الهم قلبه .

٢

ليال لا تنامها من الفرح ، تتلوها ليال من الكرب . كانت قد ألهبت عواطفها بالسياط ، وعلقت كل آمالها على مجيء خليل ، فخانها حظها الأغبر . لا تجد أصعب على النفس من الفرصة تملكها اليد ، ثم تنساب من خلال الأصابع كالماء . لم تكن فى إشباع شهوة أو تحقيق حلم ، بل فى انقاذ شرف . ولماذا لا نقول انقاذ روح ؟ فمن يدريها أن حنان هذا الأب قد ينقلب فجأة إلى قسوة لا تلين ؟ أصابعه التى تجوس خلال شعرها قد تتصلب فى خيانة مباغتة وتطبق على حلقها . جميلة ! أنت ! التى كنت أعزها ولا أرد لها طلباً ، تفضحين شيبتى . تضعين ذقنى فى الوحل ، واسمى فى أفواه الناس

يمضغونه على مهل ، كأنه العلك اللذيذ ، على مهل من هنا ومن هنا .
يتبادلونه كأنه الهدايا ، ويشيرونه عندما يملون الحديث .

لمن تشتكى ؟ فتاة لا تعرف من المآزق والمخاطر شيئاً ، ترى نفسها أمام مشكلة ليست فى الحياة مثلها . هى عقدة كلها اصطدام ونزاع ، وخيوطها من ديانة وتقاليد ووهم ، موشجة بحكم الدم والجسم . وسر الحياة لا يهمه ماذا يعتقد الناس . لا رحمة فيها . جبروتها قلما يستطيع أن يثور عليه رجل يعيش فى وسط الصعيد وبعقلية يرثها عن أجيال لا تتسامح ولا تلين .

اصفرت جميلة وتاهت نظرتها ، وتعلمت أن تحتضن الوسادة بذراعيها ، وأن تسرح لا أن تنام . تتقلب على الجنبين . هل من مخرج ؟ ليس إلا أن يأتى خليل من جديد .

وعادت لخطاباتها ، فهى كل ما بقى لها . تنفخ فى روح أملها ، وتستحث خليلا على المجىء .

٣

فى هذا الوقت بدأ عباس يفتح الجوابات . لم يفهم فى أول الأمر أن جميلة قد دخلت فى دور الأمومة . فهى بعد أن أخبرت خليل بسرها فى خطاب سابق لم تعد إلى ذكره . تشاؤمها وخجلها يثنيانها . تحتمل عارها فكرة ، ولا تطيقه على الورق مخلوقاً من صنع يديها مكشوف الوجه ، بشعاً يحملق فيها . واكتفت أنها فى كل خطاب تناديه ، وهو فاهم .

وظل عباس جاهلا سرها وإن كان فى دخيلته إدراك مبهم بأن هذه الخطابات تحوى شيئا من النقص والتناقض . فكان ما بها من تشبث بعيد عن الارتماء ، وعاطفة لا يضعفها التكرار ، ولا يطفئها صقيع تيار يخلفه الزمن فى جريه قد جعل عباس يرآها وهو مأخوذ بها فى صورة معوجة ، تزيد من إعجابه ، بقدر ما تمد فى ظنونه . ولكنها — كلوحة السينما — تدلس الفزع بمنظر أبتر ، وترد منطقيته عندما تكشف عن أساسه — أدرك ما كان غائباً عنه عندما وجدها فى خطاب غريب تنفجر بمرارة . مسكينة ! تقول له لماذا لم يأت ؟ هل نسى ما أخبرته به ! أم لم يفهم ؟ لعله فى فسحة يضحك ويتسلى بين أصدقائه يطارحهم النكات . فهل فكر فيها ؟ جاوزت شهرها السادس وأصبح منظرها مفضوحاً . منذ أيام وهى تدعى المرض حتى لا يراها أبوها . جاءها القسيس وبارك وصلى . وجه أمها مسود كسيف ، لعله هو الذى ينم عليها . لا يزال فى الأمر مخرج . لو جاء ! لو جاء وعقد عليها وأخذها معه . بعيداً بعيداً عن هذا الأب وهذا المنزل . لتعش طول عمرها خادمة تمسح حذاءه ، ليضربها كل يوم ، ليعطها عيشاً حافاً كالكلاب .

« لما قريت الجواب حسيت لأول مرة إن المسألة مش هزار ولا لعب عيال . أثارتها حاجة خطرة ومحزنة وأنا مش دارى . افتكرت جواباتها كلها وفهمت . وقتها بس فهمت . أقول لك الحق قلبى وجعنى علشان البنت دى . طول الليل وأنا أفكر فيها .

لو كنت فى مصر يمكن ما كنتش أترعب علشانها . لكن هنا فى فى كوم النحل حاجة مخوفانى . حتى الهوا اللى الواحد يتنفسه يكتم الصدر ويخنق الواحد . ما فيش رحمة ، كل أملى حطيته فى الرد اللى ح يجى . ما ليش صبر أستنى . أنا ياللى ماليش دعوة ولا حاجة تمسنى ، أمال هى بتعمل إيه ؟ »

بعد أربعة أيام جاء الرد . لم يستطع عباس أن يصبر حتى يأخذه معه إلى منزله ويقرأه فى خلوة ، بل فتحه فى المكتب وبقية الخطابات أمامه لم يفرزها بعد . وقرأ :

« عزيزتى ونور عينى

علم الله أنى ما تأخرت فى الكتابة إليك إلا لأنى كنت مشغولا ومشغولا جدا ، وأنا ياعزيزتى لم أرد إخبارك من قبل بسوء التفاهم الذى وقع بينى وبين ناظر المدرسة حتى لا تتكدرى من أجلى . كل الخناقة على درس خصوصى والسبب فى التوقيع شخص كنت أعده صديقى كما قال الشاعر :

احذر عدوك مرة   واحذر صديقك ألف مرة

وتصورى ياعزيزتى أن الناظر أراد أن يؤذينى ، وسمعت من الباشفراش أنه شرع فى كتابة تقرير ضدى ، حتى أصبحت أترحم على أيام الإسكندرية ، وحتى يئست من حظى ، وقلت إرادة الرب . ولكن محبة إلهنا خلت ناس من حيث لا أعرف يتوسطوا لى

وأخيراً قرروا إعادتى للأسكندرية وهذا آخر جواب أكتبه لك من مصر ، لأنى مسافر اليوم بقطار المفتخر . فأرجوك ياعزيزتى أن تكتبى لى من الآن فصاعداً على عنوانى القديم هناك . عزيزتى أظن فهمتى الآن لماذا تأخرت فى الرد ، ولماذا يستحيل على السفر إليك . لولا المشاكل التى شرحتها لك ، لكنت كلمتهم فى إجازة قصيرة بحق وحقيق ولكنى زى ماشفتى ما فيش فى إيدى حيلة . ولكن لا تخافى المسألة ملحوقة . استفهمت من ناس قالوالى على أدوية كثيرة ووصفات ، فأخبرينى أبعث لك بدوا ينفعك . وهذا فقط حتى تأتى إجازة الصيف وأحضر لك .

عزيزتى — أخبرك أن أختى مريم ستحضر طرفى للفسحة بالإسكندرية ، وأمى فاضلة لوحدها رجليها بتوجعها ، ومش عاوزه تسافر .

عزيزتى — عندى كلام كتير مخليه لما أروق فى الإسكندرية أكتبه لك من هناك .

ألف قبلة من المخلص إليك دائما .

خليل »

« شفتش بواخة أكثر من كده ؟ هو دا جواب يكتبه المغفل دا . زى اللى أنا حاسس بقلب البنت لما تقراه ...سكاكين تقطع فيه ! !

الفصل الخامس

سقطة البوسطجى

حطيت الجواب على جنب فوق الطرابيزة عبال ما اخلص من من الشغل واقفله على مهلى . قلت فى نفسى أصلا ما هواش مستعجل قد كده . و يمكن يبقى ثواب منى لوأخرته عن البنت المسكينة شوية . ومسكت فى الشغل زى العادة كل يوم .

ملأ الختامة حبراً جديداً . وأصلح تاريخ الختم المستدير ، ثم جاء بالخطابات ورتبها كلها على ظهرها كوماً واحداً ، ثم بدأ يختمها فى حركة آلية سريعة متكررة . مرة على الختامة ومرة على الجواب . خبطة مكتومة ، وراءها رنة خشب . هذا الصوت الذى يألفه كل من يعيش بمكاتب البريد أو يمر بها . هو شهيقها وزفيرها وهى تلهث فى عجلتها .

لسوء حظ عباس دخل عليه فى هذا الوقت شيخ الخفر . هو رسول العمدة يسأله متى يخرج من البيت. هب فيه عباس وهو محتقن الوجه هائج . ختم البريد فى يده يرتعش . ما هذه « الحوتة » ؟ كل يوم : البيت ، البيت البيت . يكفيه وجع دماغ . إنه لا ينادى طرشاً ولا يتكلم بالسريانى . هو باق لايتحرك لوعيد ولا لرجاء . إنه ليس بطفل يهزل . وحتى يعتقد العمدة ويريح نفسه ، ها هو هذه المرة يقسم بالله ثلاثاً أنه لن يخرج من الدار . والله العظيم وبالله الكريم .

نسى أن الختم لا يزال فى قبضته . ولم يهتم فى حدته أين تقع ضربة الختم . وخانته يده فهوت بالختم على جواب خليل المفتوح

وقبل أن يعى عباس لنفسه كان قد انطبع تحت إمضاء خليل ختم (كوم النحل — وارد) فى استدارة أم خمسة ، تلمع الحروف والأرقام حبر زفر ملعون .

وقف أمام خطئه ذاهلا تركبه الأوهام . لو حاول أن يمسحه لخرق الورق ، وكأنه جاء يكحلها فأعماها . ولو أقفله وسلمه لأم أحمد ، فلابد أن تكتشف جميلة سره وتتصل بخليل فيشتكيه من يدرى ؟ وربما قدم الخطاب دليلا ضده فيكون جزاؤه الرفت مؤكداً .

« بقيت بين نارين . إن سلمت الجواب انفضحت . وإن قطعته ولاحرقته تفضل جميلة تهرى وتنكت مستنية الرد والذنب ذنبى أنا . لكن قلت فى عقل بالى : ياما جوابات بتضيع فى البوسطة. لو

ما رحلهاش بالمرة يكون أحسن ، والمسئولية تبقى متوزعة بينى وبين العموم فى مصر . والجوابات العادية دى ما عليهاش كنترول . وغايته لما يشوف خليل أن جميلة اتأخرت عليه فى الرد يكتب لها تانى من الإسكندرية ، وح تفهم أنه راح هناك ، وتكتب له العنوان اللى عارفاه . إيه العنوان دا أنا ما أعرفش ، هى لازم كتبت له عليه كام مرة وحافضاه كويس » .

واحتفظ عباس بالجواب . جاءته أم أحمد فهز لها رأسه . عادت بعد الظهر « مع الأسف ما فيش » فى الصبح مرة أخرى : « لسه ما جاش » : بعد الظهر . « ما كنش ينعز » تانى يوم : « النهاردة الحد ما فيش بوسطة » يوم الاثنين : « يمكن العصر » فى العصر : « يمكن فى الصبح يجى » . كل هذا والجواب مطبق بظرفه فى جيبه .

« عاوز أكلمها وأفهمها . أقول لها خليل راح الإسكندرية . لكن مش قادر . ماتعرفشى أنا فى الأيام دى كنت متعذب قد إيه . ولسه اللى جاى ألعن وألعن » .

فى اليوم الخامس جاءه الخطاب الذى كان ينتظره بلهفة ، خليل كتب من جديد من الإسكندرية . لم يفتحه . ونوى أن يسلمه إلى أم أحمد لحظة أن يراها فيكفى ما سببه من تأخير . ولكن أم أحمد لم تأت . انتظرها إلى العصر فلم تظهر . بعد التشطيب وضع الجواب فى جيبه وسار الى مسكنها . لم يقترب من رأس الحارة حتى رأى

النسوة حول المنزل كرش الملح . كلهن « مبشنقات » . دق قلبه وكذب وسواسه . وسأل فأجيب :

أم أحمد تعيش انت .

وعلا حواليه صراخ النائحات ، وخيل إليه وهو مشلت الذهن أن كل هذا الجمع الأسود كسرب من غربان الشؤم ، يصوت عليه وعلى مصيبته الثقيلة وبخته المائل .

« وقفت مذهول . طب ماتت ماتت . مرة كركوبة فى داهية لكن الجواب اللى فى جيبى أعمل فيه إيه ؟ الغلطة بتاعتى بدل ما تتصلح اتهببت زيادة . ح اضطر أرجع الجواب للعموم وأقول عليه : (المرسل إليه متوفى). لو كنت ما بوظتش الجواب الأولانى كانت جميلة عرفت مطرح خليل وكتبت له على عنوان جديد بعد موت أم أحمد . واتفقت وياه على حاجة . جيت أنا بسلامتى وقطعت الخيط اللى بين الإثنين . والمصيبة أن الغلطة دى ما تحصلش إلا والبنت فى كرب . تقريباً بتستغيث . ح تقول عليه إيه » ؟ لا زم ح تفهم إنه بيتهرب منها والخدع مظلوم . ويمكن كان يجى لو كتبت له مرة ثانية . مين يعرف ؟ وأرجع أقول يتفلقوا الكل سوا أنا عاوز أخلص نفسى وبس . حرمت ألعب فى جرابات العيال دول توما يكتبوا لبعض من جديد . لكن ازاى ؟ ازاى أتوصل لحيلة ؟ ما يمكنش فى بلد زى دى تتشمم على بنت أو تسأل . وتسأل مين ؟ دانا غريب وعازب . وبفرض عرفتها ، أكلمها ازاى ؟ مشيت مش حاسس

بنفسى . أبص للبنات اللى فايتين . ياترى ما تكونش دى جميلة ؟ ولا دى ؟ يمكن دى ؟ قايست وحاجة خلتنى هجمت على أول واحدة :

— جميلة ؟

هربت منى ! والثانية :

— ما تعرفيش جميلة ؟

خافت وجريت ! والثالثة دورت وشها للحيط ، ووطت . شوية شوية ح تقعد ع الأرض وح تعيط :

أظن دلوقتى ح تضحك لما تفتكر بلاغ العمدة الأولانى ضدى . وازاى انتهز الفرصة دى واشتكانى . أنا كذبت عليك وقتها . ولما سيبتك كنت عيان صحيح . ما اقدرش أقوم من السرير . جات لى حمى بقيت أهلوس يمكن جمعة .

فى الوقت ده جه للمكتب بدل من أسيوط واستلم الشغل . لازم جميلة كتبت مدة غيابى لخليل على عنوانه بالفجالة تتعجله وتقول له على موت أم أحمد والغالب — زى ما قلت لك — أنها فهمته على عنوان جديد يكتب لها عليه . دا كله علشان لما قمت من العيا واستلمت الشغل تانى ، لقيت جواب منها على عنوان الفجالة . جواب قصير تقول له إنها مستنية الرد بسرعة . وضرورى يجى قوام ، وطبعاً ما كانش فيه مناسبة تجيب له تانى سيرة . عنوانها الجديد لغاية دلوقتى ما عرفتوش ولا اقدرش اضمن يكون هوا إيه . لكن خليل عمل إيه ؟ لازم فضل هو راخر يبعت فى جوابات على عنوان أم أحمد

ولا حدش يأخدها .. علشان أتأكد كلمت البدل ، وعملت حجتى إنه جديد فى البلد ولا يعرفش حد ، وسألته :

ــ عندكش جوابات لسه ما وزعتهاش ؟

ــ فيه جوابين ثلاثة . لكن ما تخافشى . أنا روقت لك الشغل تمام . حتى واحدة أظن اسمها أم أحمد كان لها جوابين رجعتهم للعموم ، علشان ناس قالوا لى إنها ماتت .

بعد كده جه جواب تانى من خليل . فتحته . إيه الحكاية ؟ ما بتردش عليه ليه ؟ هو زعلان من زعلها . ما لهاش حق تزعل ما دام فهمها عذره . وجواب تانى بعد ده بعشرة أيام تقريباً . لسه زعلانة ؟ إذا كان فيه حاجة مزعلاها لازم تقولها له . وهو بس ح يكتب لها جوابات على فشوش وحاجة زى دى ! وبعد كده سكت خرس . ولا جواب تانى جه منه بعد كده .

الجوابات دى كلها بقيت أخدها . ما أرجعهاش للعموم . وإيه الفايدة ! وكنت باعمل كده فى جوابات جميلة . كل يومين والتانى يترمى فى الصندوق جواب منها . جوابتها زخرة اللى راحت مدة غيابى ع الفجالة ، طبعاً لسه ملقحة فى الشباك هناك . ما حدش بياخدهم » .

وتاهت نظرة عباس وتصلب وجهه ، وسمرت عيناه على مرمى بعيد . ليس فى وجهه أثر للروح الخفيفة المرتعبة الهائجة . تمثال من البرونز ، يقصد صانعه إبراز قسوة اللحم ، وصلابة خطوط

الجبين ، والجفن البارز من أثر المجهود . تتبعه حسنى بنظرته ، وهى يعجب كيف تنقلب الطبيعة فجأة . هل يكون هذا علامة على أن عباس مشرف على مرض آخر ؟ أعاده للحياة بسؤاله .

ـ وجميلة ؟

عاد عباس لحديثه أهدأ صوتاً وأخفت نغمة :

ـ « جميلة ؟ يمكن بعتت له ٢٠ جواب . كل يومين ، وفى الآخر كل يوم . ما عرفتش مين اللى بيجيبهم للبوسطة . كنت دايماً الاقيهم الصبح لازم حد بيرميهم قبل ما أحضر للمكتب . فى الأول سألته : ليه ما بيردش عليها ؟ هى مش عاوزه منه حاجة ، بس يفهمها إيه سبب سكوته » .

ثم أخذ كل خطاب يقصر عما قبله . كالنار تنطفىء وتطأطىء رأسها على مهل . حالتها سيئة ، ومصيبتها كبيرة ، ولكنها واثقة فيه لا يفارقها اعتقادها أن كربها إلى فرج ، فماذا جنت هى فى حياتها ؟ لا تذكر أنها صلت بقلب بارد ، أو أذنبت فى حق الشاب . يارب لماذا ؟ من وسط آلاف الفتيات يختارها القدر ليذيقها المر ؟ من أسابيع وهى لاتخرج من البيت حتى ذوى لونها ، وأمسكت عن الأكل إلا مايدفعها إليه جوعها .

وساعد جميلة على التهرب من نظر أبيها أنه قلما يأتى لمنزله إلا لينام . تجارته تشغل وقته وتضطره إلى السفر لأسيوط . فى المرة الأخيرة عاد مع الليل بعد غياب غير قصير ، ودخل وفى حضنه بطيخة .

— جميلة ! فأجابته أمها :

— البنت عيانة شوية . سيبها » .

جواب واحد لا يتغير منذ زمن . سار المعلم سلامة إلى ابنته . لما رأته — وهي في فراشها — نهضت واقفة . الغرفة معتمة والنور ضئيل . اقترب الرجل من ابنته ووضع يده على رأسها ، وسقطت نظرته على جسمها . ورفع وجهه ، فإذا به قد شاخ في اللحظة الضئيلة سنين . هو « العضمة » الزرقاء حقاً . وجهه في لون رمادي منطفىء ذقنه معفرة وشفته « منيلة ». في عيونه لمعان أصفر ، وكأن رأسه صغرت فجأة ، فالعمامة تنزلق ، وهي ثقيلة الدم ، فتقضم نصف أذنيه ، وأدار وجهه لينادي زوجته ، فانفلتت جميلة وعادت إلى فراشها نظرة أخرى ثم خرج .

ونسى المعلم سلامة عشاءه ، وفضلت البطيخة صحيحة .

« رجعت جميلة كتبت لخليل جواب طويل . لازم أبوها مش ح يسكت بعد كده . خايفه منه . خلاص ما لهاش أمل . تلات أربع أيام ما خرجش من البيت . ينفخ ويتنهد . كل ما تحس برجله جاية ناحيتها قلبها يقف . لو يجي خليل ولو يوم واحد ، كل شيء ينتهي . فين هو ؟ في عرضه . في طوله . تبوس رجليه . يعمل فيها معروف » .

مضت ليال لم يغمض لها فيها جفن ، تنصت لوقع الأقدام وتظن الظنون . على أي شكل ستلقى حتفها ؟ أيختار حبلا أم سكيناً ، مخدة

مبللة أم سماً نقيعاً ؟ ونسيت جميلة خليلا وصمته وكذبه وخيانته، واقتصر اهتمامها على حياتها . لو تستطيع أن تهرب من الدار لنجت . ولكن أين السبيل وهى محبوسة ؟

« كتبت له الدور دا يا يلحقها يا ميلحقهاش .. لو ما تت مقتولة... يكون موتها علشانه . يبقى ما ينساهاش .. ويفتكر فى تربتها . .

آخر جواب كان بتاع النهارده . وأنا رايح المحطة الصبح فتحته وقريته ، كلمتين اتنين بس .

«خليل .. الحقنى » !

عمرى ما شفت واحد بيطلع فى الروح . ولا شفت ميت . الكلمتين دول خلو جسمى يقشعر .. تعرف الحروف لما يشخر ويرفص وقت ما يندبح .. والفرخة لما تجرى ورقبتها مقصوفة .. كل ده مش حاجة جنب الكلمتين دول .. الجواب ده مسكته وقطعته .. الباقى اللى فى الشنطة زى الرصد قدامى .. هياح يكونوا أهم من جواباتها اللى ضاعت طظ ! ينفلقوا أصحابهم ويروحوا فى داهية إذا كانوا عاوزين .. جوابات سمجة سخيفة دمها بارد .. رحت نازل عليهم وهات ياتقطيع .. تقولش ساعتها إنى باقطع فى هدوم واحد بخانقه .. بغل .. وبعدين ما حسنشى بنفسى .. دخت ورحت فى دنيا غير الدنيا .. اللى غايظنى ساعتها ان الدنيا دى حاجة سخيفة .. إتهيألى أنها طرشة . تفضل مهما صرخت فيها ماشية زى العادة ما فيش حاجة تقدر توقفها .. ليه زى الطرشة ؟ علشان عمرها ما تبص

وراها .. البنت المسكينة دى داسنها وفاتت عليها. أنا لغاية دلوقتى ما اعرفش جرى لها إيه .. أكثر من كده . عمرى ما شفتها ! لكنى أنا متأكد أن البنت دى ما تت غدر .. والسبب أنا .. ما فيش حد قتل البنت دى غيرى أنا . ..أنا .. »

وسكت عباس فخلا حسنى لنفسه . هو كالمتفرج فى السرك تهزه مخاطرة اللاعب ، وإن لم يفته اليقين أنها ككل ليلة — تنتهى بسلام . بيد أن عاطفته جعلته لا يتخلف عن عباس فى قصته ، يسايره فكرة فكرة ، فاهماً دواعيه . مقدراً أحزانه وهمومه ، ويشاركه الندم ، ويرثى له كيف هوى حظه وخانته يده ؟ ويعتقد كما يعتقد عباس أنه اغتال هذه الفتاة بهفوته ، ولكن حسنى يعلم أيضاً أنه يستطيع بمجهود صغير أن يغير من نظرة عباس لماضيه ، ويعيد إلى هذا المريض ثقته بنفسه ... ولكنه وهو الخبير المجرب لن يقصد إلى غرضه بمحاولته التقليل من حدته وهياجه ، أو بأن يفتح له عينيه ليريه مبالغته الظاهرة وتهويله . فهو يعلم أنه لو فعل ذلك ، لما زاد شعور عباس إلا التواء ، وانكمش فى نفسه يأكلها يأساً وندماً .. فخير ما يفعله معالج الأعصاب ، أن يؤمن بقول المريض لا حيلة ، بل اعتقاداً .

التفت إليه حسنى وهو يبتسم :

« ومين اللى فى الدنيا دى كلها مسئول ؟ »

وسكت فجأة ، كأن يداً وضعت على فمه . جملة يتصيدها

ليستخدمها وهو بعيد عنها ، فلما خلقها لسانه ركبته فهوى تحت ثقلها . . كصدمة ممثل ببغاء عند ما يستفيق على أن دوره يلبسه . .

عادت الحياة لوجه عباس واقترب إلى حافة فراشه !

« طب قول لى أعمل إيه ؟ أحكى لهم فى التحقيق ع الحكاية ؟ ولا أسكت ؟ »

ـ أحسن شيء ، تكفى ع الخبر ماجور .. »

ترك عباس فراشه ، وسحب من تحت سريره حقيبة استدارت أركانها ، ومد يده يزيح أكواماً من تياب مبعثرة ، ثم أخرج من تحتها رزمة رماها على المائدة : « آدى الجوابات كلها .. أحسن شيء تاخدهم أنت .. أنا مش قادر أقطعهم . . ويمكن يلاقوها عندى .. »

جمعها حسنى بين يديه .. رزمة نحيفة من ورق رخيص ...

وساد فى الغرفة صمت ، جفون حسنى لا تستقر ، وانتبه الرجلان على صوت جرس الكنيسة الصغيرة يدق إشعاراً بموت .. يكاد ينطق ، فقد يعبر النحاس فى بعض الأحيان عن منتهى حزن الإنسان وألمه ..

قصة في سجن

أزال الواجب المتكرر شعور الشاويش وهويزج بالمقبوض عليهم إلى غرفة السجن . ولكنه مع هذا الرجل متضجر ، ملتوى الفم ، قاسى القبضة ، يتلذذ بشتمه وضربه بالكف على قفاه .. لا لأن عينيه تقع على ساقين غشاهما القشف ، أو لأن أنفه زكمه رائحة كريهة تنبعث من جلباب أزرق قذر ، مرقع فى نواح عديدة بألوان داكنة — فهذه أشياء اعتادها من الفلاحين الذين يمرون عليه — بل لأنه منذ علم أن المتهم أحد جماعة الغجر الذين تطاردهم النقطة ، وهو يرمقه بعين كارهة . لم تكن نظرة رجل إلى رجل ، بل استعراض نوع راق لفصيلة منحطة . لا تقع يده على كتفه إلا تملكه تأفف قريب من الغثيان ..
الغجر ! هل هم من بنى آدم ؟

دخل الغجرى غرفة السجن وعلى فمه ابتسامة يبعثها الارتباك فهى باردة سخيفة ، زادت بلاهة وطولا عندما وقع نظره على شاب جالس فى ركن ، فرآه يبتسم أيضا .. أشاح عنه بوجهه وقبع فى ركن آخر ، وعمد إلى التفكير فى نفسه ليتسلى .. لم يطل جموده .. وعاد بعد قليل يختلس من الشاب نظرات سريعة أنعشت فيه شيئاً فشيئاً شهوة التحدث . فتقدم للشاب يسأله عن اسمه وبلده وتهمته ، وتشعب الحديث . وجاء اسم مجرم شهير ، فذكر أنه يعرفه ، بل بينهما نسب بعيد . فسأله الشاب :

ـ « أنت بلدياته ؟

ـ أيوه .. أنا وهوا فى شياخة واحدة .

ـ أنا سامع من العسكرى بيقول لك ياغجرى .. إيه اللى لمك على الغجر امال ، إذا كنت فلاح ؟ »

وزادت الضجة فى حوش النقطة، وسمع صوت البنادق توضع فى « السلاحليك » ، وأحذية العساكر ترن هنا وهناك . وجاءت « داوزية » من ثلاثة خفراء ، وجلسوا يتحدثون بجانب السجن ، ووصلتهما كلماتهم واضحة ، وضحكاتهم كلها . اقترب الغجرى من الشاب حتى جلس بجانبه .. لم يختل بفلاح منذ مدة طويلة . وفى وحشة السجن ، ووسط الضجة غير المألوفة ، شب فى قلبه عطف وحنان لزميله . وقد يكون من أثر هذه الظروف كلها أنه

بدأ يتكلم غير محتد ولا مراوغ . لم يكن يقص حكايته ، بل كان يعيش ماضيه من جديد .

« كنت مستأجر من أخو العمدة ١٤ قيراط ، وكان عندى كام غماية أطلقهم فى الغيط وقت الربيع .. لما جه النيل بقيت من غير شغل . فصاحب الطين قال لى : ياعليوى ما ترحش وانت بطال بالغنم بتوعى لغاية المنيا ، توصلهم لواحد تاجر هناك ، معرفة ولك على ياعم إنى أبسطلك خالص . قلت له : الطريق واعر على . قال لى : أنت واعى فى الغنم وأنا مختارك ، أنت رجالى، الطريق اللى انت خايف منه سهل . خليك مع الإبراهيمية مبحر مبحر تلق نفسك حدا المنيا . وراح الراجل اشترالى سكين كويسة وادانى حمارة ، وسلم لى ٦٥ رأس . فخرجت بيهم من البلد والميه فى الحوض علو قدم .. وفضلت سايق على جسر الإبراهيمية والغنم قدامى .. ! »

... وليس الخروف — رغم أنه حيوان غير نفور — بسهل القيادة . فخطوته بطيئة ، إن لم تجد حثاً مستمراً وقفت . وأفراده المتفرقة لا تجمعها سوى عصا متيقظة . وكان عليوى تارة (يحلق) على السيارات المتتابعة و (يحجز) الغنم بنبوته الطويل ، وتارة ينزل فى بعض الغيطان وراء كبش شارد وقد يلبث النهار كله لا ينطق إلا بشين يمطها ويصفر بها. ونبوته الطويل ينقر ظهور الغنم نقرات قوية تضمها فى قطيع واحد يسير ، فتثير أرجله القصيرة الدقيقة سحباً من التراب . تتوالى نداءاته (ماء ماء .) بعضها جاف

قصير ، وبعضها يكاد يتكلم . وتسمع فيه استغاثة لا شك فيها . منها الأجش الغليظ يخرج من حلق أيبسته السنين ، وبعضها كذبذبة وتر رفيع ، تبعثها أجهال صغيرة لم يتبين لها بعد ظهر من بطن . كل سيرها وثبات جانبية، وتناطح وهمي. يتطاير منها النشاط والمرح فقطيع الغنم - هو الآخر - يحمل بين طياته السلسلة التي تربط الحياة بالموت !

وخشي عليوى على حمل صغير أن يضل ، فرفعه من ساقيه ، فتعالت مأمأته وتكررت . وسار به يشق لنفسه طريقاً وسط الغنم ، ويضع يده هنا وهناك ، فتقع على موج من الصوف قد ألهبته الشمس، وذاب في عرقه تراب كثير ، فهو متلاصق ساخن تحته أجسام محمومة صابرة على ألمها . حتى وصل إلى الحمار ، وفتح كيساً ووضع حمله . وكان يتبعه في سيره ويشق الطريق بمجهود أشد من مجهوده وبإرادة تكاد تنطق أن لن يثنيها عن عزمها شيء . نعجة هزيلة ، لها عن كل مأمأة جواب ، فيه نداء حنون تخفى تحته ولع الأم وجزعها . ولم يكن مظهر عليوى ينبيء أنه يستطيع تحمل عبء القطيع ، فهو فتى لا يزال في ميعة الصبا ، قد لا تلحظ العين ادلة وراثته الفرعونية. من قامة مديدة ، وصدر عريض ، إلا أنها لا تخطىء نحافته الواضحة . فليس هناك تناسب بين قدميه المفرطحين وساقيه الرفيعتين . تحت ترقوته هبوط غائر ، قد يكون من الجوع ، تقيم عليه عظمتان بارزتان ينتهي عندهما شعر صدره المكشوف. وجهه من جلد وعضل

مشدود مهما جرى لا يهتز فيه لحم . وإن حرك فكه ، تكسر سطح صدغه فجوات وكرات ، ورغم هذا كان لا يفتر عن الحركة ، تجدد نشاطه قوة خفية تسيل فى الوادى ، ولا تقل عن النيل جرياناً .. لم يفنها صنم كالهرم . ولا قبرتها آلاف السنين .

كان عليوى يقطع المسافات ، ولا يتبقى فى ذهنه من الطريق سوى أسماء القرى أو قباب صغيرة بيض لبعض الأولياء ، منهم من يعلو الجسر ليدفن البلد حوله موتاها ، ومنهم من يهبط للحوض لينعم الزرع ببركته . فعليوى — كفلاح . ولأنه يجتاز الطريق لأول مرة ، قليل الصلة بالأماكن التى يمر عليها ، لا يلفته إليها سوى مصلحة شخصية . فلم يؤثر عليه بشىء جسر الإبراهيمية ، وهو يبدو تحت تأثير شمس الصعيد المتوقدة فى منظر كريه تظلله سحابة من التراب المنعقد ، يمتد أمامه شريط ضخم من التراب المكدس ، مشرذم الحوافى .. يتوالى هبوطه وارتفاعه ، ويتردد سطحه غير المستوى بين الضيق والسعه . يزيده قبحاً أنه كثير الارتفاع ، فلا تبدو من الأشجار المغروسة عند سطح الماء سوى فروع قصيرة تحجب المنظر ، ويستطيع السائر أن يلمسها بيده . من لعليوى بمن يخبره أن ليس كل ارتفاع الجسر من التراب . ففى أحشائه أيضاً هياكل كثيرة من عظام الفلاحين . وقد يكون فيهم بعض أجداده — الذين فتحوا الترعة بطول أربع مديريات بمعاولهم البسيطة . وربما بأظفارهم أيضا ! ! وكان يموت الفلاح فيهال التراب عليه ، كما هو عقطفه ومعوله ، وجلبابه الأزرق الوحيد .. أكل الجسر أجسادهم ، ومحا لحومهم . وما على جلودهم من أثر الكرابيج .

« ... فى رابع يوم بعد أدان العصر بشوية ، حصلت نزالى جانوب وكنت ناوى أمشى طوالى وأبات بالغنم فى صنبو ، لكن ما عرفشى إيه اللى خلانى أوقف الغنم قدام البلد دى ، إن قلت كنت تعبان أكدب .. يمكن علشان لقيت على الجسر و ابور طحين خربان .. »

فقاطعه الشاب فى لهجة أقرب للهزؤ ، أو إنصات الرجل لحديث طفل .

« ولا قسمتك جات كده .. »

وكان الشاب لايزال يبتسم . لم ترتفع عينه عن عليوى تراقب فيه منظراً مسلياً .. فمذ شعر أن عليوى يؤاخيه . وهو يحتقره وكلما قاطع الحديث بتهكماته ، وكثيراً ما فعل ، اهتز جسمه سرورا ..

... « ربنا عالم .. أنا ما صدقت لقيت للوابور سور كبير ، رحت صافف الغنم جنبه وقلت : الليلة دى تنتهى بالنوم ، ولا حدش يهرب منك وتفضل تجرى وراه.. واستكنيت .. أدنت العشا ، جيت جنب الغنم وقلعت جلابيتى وحطيت راسى على دراعى ونمت .. لسه عينى ما دخلتش فى النوم إلا ولقيت جماعة جايين على من ناحية البلد وسطهم حمارين ، وقدامهم شوية معيز ، لما حصلونى لقيتهم جماعة غجر قلت أعوذ بالله من داحظ يمكن ياواد يفوتوا طوالى .. وقمت وكنت نفسى أشوف إيه اللى ح يحصل .. جم حداى ووقفوا .. وشويه لقيتهم فارشين حوالى . . »

عمد رجلان إلى الحمير فأنزلوا منها أستاراً رقيقة . أمالوا الواحد على الآخر ، فإذا أمام عليوى خيمتان صغيرتان .. ودقوا أوتاداً ربطوا فيها معيزهم ، وأخرجت امرأة « حلة » وجلست تفركها بالتراب ، ثم ذهبت إلى الترعة . وجمع أحدهم عصياً ثلاثاً فى حزمة ، ثم فردها وثبت قوائمها بالأرض ، وجاء بقدر علقه من وسطها ، وأشعل النار تحته ، ومال بوجهه ينفخ فيها وبعد قليل انتشرت رائحة الشاى ، وانتبه الغجر لحاوهم « وواحد منهم قال لى : اتفضل اشربلك فنجان ويانا .. قمت رايح وقعدت » ، فسأله الشاب :

— « كان بقالك زمان ما شربتش شاى ؟ »

— « ما انت عارف الفلاح عبيط ، ما يقولش فى عزومة لأ . لكن أقولك الحق إنى خفت .. كل الحكايات فى بلدنا عن الغجر أنهم حرامية وخطافين ، ولهم حيل ما تجيش ع البال . أنا قلت فى عقلى ياواد اتفرج ع الناس دول .. كانت وياهم بنت ، فضلت تروح رتيجى قدامى ، مخدتش بالى منها إلا لما شفت الرجالة مكشرين لها . ما حدش يكلمها منهم بلطف وإنسانية ، إلا كله بشخط ونطر . ساعات ترد وساعات تمشى ساكته . ما عرفتش عملت فيهم ايه إنهم يشتموها من غير ما يسمعوها (يامجنونه ! ح تشوف .. ح نوريكى) . بقيت بعد كده كل ما تفوت قدامى أبص لها . » .. فوجد فيها وجهاً شديد السمرة ، يكاد يكون كامل الاستدارة ، وأنفاً دقيقاً ، على جبهتها نقطه خضراء . وعلى ذقنها وشم غض . قصيرة القامة ، معتدلة الظهر ، رأسها كثير اللفتات تنبىء عن عصبية قوية ..

وكانت تخفى غضبها بضغطة ظاهرة على شفتيها زادتها طولا وضموراً ولما جاءت تتناول الأقداح ، فاحت له منها رائحة غريبة عن أنفه .. خليط من عرق وقذارة ، وعطر فيه قرنفل وشند (١) ولم يشعر عليوى إلا وهو منطلق فى الحديث ..

« فضلنا نتكلم .. وفضلوا يسألونى عن الغنم : رايح بيهم فين؟ ومعاى كام ؟ أنا خمنت يكونوا بيسهونى عن حاجة والا ملعوب . قلت قوم حوش عن غنمك . رجعت مطرحى مقدرتش أنام .. يادوبك عينى بعد نص الليل غفلت ، إلا وصحيت على نبح الكلب . وأبص ألاقى غنمى متفركشة قدام تلات عساكر ، خيولهم عينيها فى الظلام زى الشرر لسه فاكرهم لدلوقتى .. بقيت مخبول أجرى وأقع .. كل ما التفت ناحية العجر ألاقى العسكر نازلة فى الخيام هد ، والنار انطفت وبقت دخان . وسمعت الشتيمة نازلة فيهم : « ياحرامية .. ياخطافين ياولاد الكلب .. » دراعاتهم تهتز فوق رءوسهم ، يزعقوا : « فى عرضك ياسعادة الشاويش .. » ولا كن ولا فايدة .. لموهم كلهم فى سلسلة وأنا فضلت أجمع فى الغنم ، لغاية ما حمدت ربنا وانلميت عليهم رجعت مطرحى ، جيت أشيل الجلابية وأنام ، ما أبص إلا والا قى البنت الغجرية مكومة نفسها ولازقة فى الحيطة أقولك الحق ارتعشت من الخضة ، ياخبر اسود ! إيه التهمة اللى جيالى دى ؟ !

— بنت إنت هنا ؟ إيش جابك ؟ بتعملى إيه ؟

(١) نبات عطرى يستخدم للبخور .

شاورت لى بصباعها .. لغاية ما بعدت العساكر خالص اترمت على وقالت لى :

أنا فى عرضك .. دول كانوا عاوزين يموتونى .. فاكرين أنا اللى دليت عليهم فى سرقة القوصية ، حبسونا كلنا . وأول ما طلعم سرقوا تانى .. فى عرضك خدنى وياك .. مطرح ما تروح أروح .. بس أبعدعن الناس دول ... »

ومدت الغجرية ذراعيها وتعلقت برقبته لم تكن ترتعش ، ولا كانت سريعة التنفس ، وكل ما تغير فيها أن زالت ضمة شفتيها فبانتا متضخمتين وانفرجتا عن سنين كبيرين ، وتركت عينيها مسبلتين ، لعله التعب ، أو كأن هذه أول تجربة صادفها عليوى ، وربما أيضا لانه لم يشم من قبل رائحة الشند والقرنفل عن قرب .

سواء كان هذا أو ذاك ، أحس عليوى بقواه تذوب بين يديها ، وتراخت ذراعاه بجانبه .. وعادت للذهنه صورة هذه المرأة وهى تمر أمامه عندما كان يشرب مع رفقائها الشاى ، وتذكر لفتات رأسها . ولم يكن يدرى وإن كان قد أدرك الآن — أن لهذه اللفتات جاذبية عجيبة وسحر قوى .. وطال صمته ، يعلله ضميره بأنه من آثار تربيته التى علمته منذ الصغر أن يرهب الغجر ويخشاهم . ولكنه لم يرد ذراعى المرأة ، بل أحس بعد قليل أن ما انحل من أعصابه عاد ينفر فى جبهته ، ويجف فى حلقه ، ويرتعش فى قلبه . واجتمع هذا وذاك على ملء عروقه بدم يغلى ويطن فى أذنيه .. وإذا بذراعيه على ذراعيها يتبادلان ضمتها ..

وزاده التهاباً أنها ابتدأت تقترب منه شئياً فشيئاً . . وكان يدفعها نحوه شعور هو خليط من الفرح والعناد .. وربما لم يكن شوقها للرجل ، بل لتذوقها لذة حريتها فى ليلتها الأولى . ثم ما إن بادلها الرجل ضمتها ، حتى أنطلقت من مكمنها رغبة قوية طالما كبتت فكانت فى انفكاكها هوجاء .. ولكنها حريصة على نفسها إلا تفنى سريعاً .. فهى تضغط على حدتها وتغطى عنفها بستار من الاتئاد واتزان الخطوة . . وجعلت كل همها أن تعطى للرجل ما لم ينله من قبل وأن تأخذ منه أكبر ما تستطيع .

وكانت وفمه على فمها تلمع فى نظرتها ، رغم الظلام ، صورة الانتصار . ولو كان للغريزة جسد وأشرفت عليها ، لهزت رأسها رضا وافتخاراً ، ولدافعت عن نفسها بأنها لم تكن لترضى من آغلب الناس بالعبارة المحتشمة المتسربلة فى الحياء والخفر ، إلا لأنها تنقل لأفراد قلائل منهم ، وفى أوقات متفرقة ، كامل قوتها ، فيهبونها أرواحهم ويدعونها أن تحل بهم من غير شريك ..

ولم تطل القبلة ، لأن المرأة استيقظت وتنبهت لموقفها فقامت وسحبت الرجل من يده ، ودخلت من ثغرة فى سور الوابور ، وشملهما الظلام .. وكان على الكلب هذه الليلة أن يحرس مع الغنم سيده ..

... « قصره بيتت معاى الليلة دى .. وقلت لها : يابنت الحلال أنا أخاف الله . . وأحب حكم الشرع .. قالت لى أنا وهبتك نفسى .. قلت لها : وأنا قبلت ، وإذا سمع عنى حد أقول : فلاحين كتير

بيجوزوا فى البنادر بالوهبة ..

قال له صاحبه :

« – لاكن مش ع الجسر .. ومش مع الفجر – ساعتها ما كنتش دارى بنفسى » .

... لا يدرى كيف نام وهو يسوق القطيع ، فطلع عليه النهار وهو من المسوقين أمام قدر لا تفرق عصاه فى دفعها للأحياء بين بنى آدم والغنم .. ولكنه رغم هذا يشعر بأن هذه المرأة غمرته بلذة جديدة عليه ، فانقاد لها كأنه متعب ، يجد بعد جهد فراشاً وثيراً .. وترك عليوى نفسه ترتاح وتستند إليها .. لا يهمه وهو فى هذا النعاس المعسول – أى قيد غللته به .. ما دام تيار الحيوية الذى استيقظ فيه – ولا يستطيع بعد ذلك كتمانه – لن يجد فى غيرها مصباً يتدفق فيه ويزخر .. ونسى عليوى من أيامه ما مضى ، وقصر همه على الساعه التى هو فيها .. وفى الصباح كان يسير وراء القطيع وهو لايزال مدهوشاً ..

... « مشينا تانى فى الفجر وأنا مدروخ .. حصملنا ديروط .. لا لا ... نسيت. بعد ما مشينا شوية بصيت على الكلب ما لقيتوش .. رجعت أدور عليه ، لقيته جنب شجرة بيطالع فى الروح ... » راقداً بمؤخره على الأرض ، رافعاً راسه على مقدمين مرتعشتين ، يهتز جسمه متشنجاً وحدق الكلب فى صاحبه ، ولمعت فى عينه لحظة بارقة أمل ، ثم أطفأها سريعاً حزن عميق صامت .. لم ير من قبل عيوناً تبكى مثل عينى الكلب الجامدتين ، وكانت تكلمه وتقول : « هل هذه آخر مرة

ترانى ؟ » وفتح فمه .. ولكن الموت كان قد انتهى ، ووضع يده على هذا الفم فلا يستطيع نباحاً .. وانحدرت بدل الصرخة سيول من لعاب لزج ، تنبيء عما فى جوف الحيوان من غليان وألم لا يعلمه أحد .. لم يفهم عليوى سبب الحادث . . لعل أحداً من الناس ضربه . . وكم من فلاح يضرب الكلب الغريب بقسوة ، أو لعل صبياً قذفه بحجر هذه الشهوة التى تتمثل بها أول فكرة إجرامية فى رأس الطفل .. ومد يده يتحسس ظهر الكلب فإذا هو سليم .. وشعر بالغجرية بجانبه .

. « جت قعدت جنبى تتفرج . بصيت لها قالت لى : « سموه .. كانوا عاوزين يسرقوا غنماتك وانت نايم .. جم أجلهم قصير ، وراحم فى داهية . ما تزعلش ، بكره تلاقى غيره ، وعلشان خاطرك أنا جبت لك منهم معزتين هما دول اللى فى الوسط . قلتلها : بتوعك المعزتين ؟ قالت لى : لا ، بتوعاتهم .. » فقاطعه الشاب من جديد .

— « أهى غنيمة وجاتلك بلاش .

— لا والله .. مارضيتش أبداً آخدهم لكن أعمل إيه . . . »

إن استطاع كلبه بين يدى الموت أن ينبح ، فليتكلم هو بين يدى التى سلبته عقله .. ولم يكن شىء أنطق بالاختلاف بين الطبيعتين ، من الابتسامة الخفيفة التى تمشت على فم الغجرية ، تقابلها تقطيبة ظاهرة على جبين الفلاح . . وخفتت رعشة الكلب شيئاً فشيئاً حتى تلاشت حركته ، وتجرأ الذباب على فمه وعينيه . . وقام عليوى ليعود إلى قطيعه ، وقد تنازعته حسرة على كلبه يتركه وراءه ، ووجل من

المعزتين تسيران أمامه ، ويتمثل فيهما أول جرم ارتكبه فى حياته وهو الذى عاش طول عمره يرهب النقطة، ويرتعش أمام العمدة ، ، يحيى العساكر باحترام ..

« من أول يوم لقيت الغجرية شاطرة .. حوشت اللبن اللى تحلبه وباعته ، وكنت الأول أحتار فيه ، وفطمت لى كام حمل ! وخبطت على النعاج كل واحدة كيس . نسيت هم المعزتين وقلت لنفسى بكره ياواد ترجع لبلدك وتربى غنمك ، وإن كان معاك واحدة شاطرة زى دى ، ليه ما تقبلش غنم الناس لما تودعها عندك وتسرح بيهم !! بكره رزقك ياواد يتسع .. وربك كريم .

« بعد كام يوم حصلت ملوى ، ولقيت فى مدخل البلد أرض بور رحت سايب فيها الغنم ، وجيت عالجسر قبالة قهوة وقعدت .. البنت غابت تحت مع الغنم .. كانت ليلة من أولها مقندلة زى الزفت .. ما اعرفش جرى للبنت فيها إيه . انقلبت على فى الصبح قلبة واحدة .. »

نزلت الغجرية تجول بين النعاج بخطوة بطيئة ، لا شىء يدعوها للبقاء مع القطيع . ولكن لا شىء يدعوها أيضاً للرجوع إلى عليوى .

بدأت تمل معيشتها الجديدة الواضحة تسير فى طريق معلوم وعادت تحن لتجوالها القديم . كل لذتها أن تطارد من بلد إلى بلد ، ولا تزيد صلتها بمكان أكثر من ليلة . زالت الفورة ، ولم يبق من عليوى سوى رجل هادىء تستطيع أن تثق بطيبته . ولكنها مع ذلك تندم على حياة نصفها محبة ونصفها عداء . فالغجر أنانيون لا يقبلون الغريب بينهم .

وقد ظلت تخضع الرجل منهم ، لا عن حب بل عن اضطرار ، وكانت تجد لذتها فى الصراع الدائم بين شدة مراسها وحقد أضغانها . وأى لذة أكبر من أنها لا تخضع إلا بعد أن يعلو إلى فمها فيكاد يغرقها تيار ينسيها حقدها. على عظمه !! وكلما وافق الاسترضاء نقطة الانكسار تمتعت النفس بأقصى حدود النشوة ، أما الآن فهى تخضع ، سواء أكان التيار إلى قدمها أم إلى ركبتها . لا تعرف لذة الشبع ، لأنها حرمت لذة الجوع . لم تكن تبغض عليوى ، ولكنها كانت تتمنى لو كان من الغجر .

قطع تفكير الغجرية نور مصباح يضىء على الجسر حيث يجلس عليوى ، وبدت لها قهوة فى وسطها — وتحت المصباح — دكة خشب عليها رجل بيده ربابة ينشد .. فنسيت أفكارها وجاءت تستمع لقصة (حبس مرعى ويحى ويونس ، عند الزناتى فى تونس ، ورجوع الأمير أبوزيد إلى الأطلال . . وتوالت صرخات الرجل ، تهدأ عندها همهمة الجالسين . وكلهم أصاخ بأذنه للقصة وللأشعار وكلما تقدم الليل ضاقت أنفاس المصباح ، يزيدها اختناقا حلقة كثيفة من ناموس كالتراب انعقدت حوله رغم دخانه المتصاعد . ولف الكون سكون شامل ، وكانت السماء فى ظلامها كأنها جناح وطواط حط على العالم . له بين الحين والآخر رعشة خفيفة .. هى سبب هزة هذه النجوم القليلة التى ترتجف ثم تثبت . ولم يستطع المصباح بأزيزه ، ولا المنشد بربابته ، أن يبدد بعض ما فى الكون من حزن جاثم .. هل الليل جثة

النهار ، فيكون هذا الحزن أنشودة الموت !! أم العالم فى أسى ، لأنه يشعر أنه يفنى شيئا فشيئاً ! ! أو ربما كان من تأثير انعكاس ما يجول فى هذا الفضاء من آلاف الأرواح الشرقية التى خلقها الله حزينة موجعة القلب !! وربما كانت هذه السماء ذاتها إذا ظللت الشمال. عنوان البهجة وامتلاء النفس بالرضا والجذل ، وأصبحت هزة النجوم رقصاً !!!

وثقل هذا الجو على الربابة . فهى تئن بصوت متشابه . ووقف العالم كله فى ناحية، والربابة فى ناحية أخرى ، ودار بينهما حديث ، وأفضى كل منهما للاخر بأسراره. وبلغ تأثر السامعين بالقصة ، أن غاب المنشد عن نظرهم وتجسم لهم أبو زيد جالساً على الدكة يصرخ فيهم صرخاته الحربية . واختلطت الأزمنة فى أذهانهم ، لايدرون أهو الذى بعث ليقص عليهم وقائعه ، أم هم الذين نقلتهم يد سحرية إلى عصره السحيق !! واختار الشاعر قصيدة يعلم من تجاربه أنها تؤثر فى السامعين . واختتم بها ليلته ، وكان آخر ما تغنى به :

على ما جرى يا ويح قلبى لما جرى والبين قيدنى بستة قيود !

مما جرى لى من هموم تكيدنى وقت إيش ياذاك الزمان تعود؟

نطق لسان الحال عن الدهر قال لى : زمان مضى ما عاد قط يعود!

ياعين! إبك على الزمان اللى مضى وأجرك على الله الواحد المعبود!

هل كان يعلم الشاعر المجهول وهو يصف آلام أبطاله أن شعره سيقابلها على الجسر فتتلقاه كضربة السكين ؟ ربما كان يعلم هذا وإلا كيف تكلم عما فى ضميرها كأنه يعرفها من قبل ، وعاشرها واستمع لشكواها مراراً !! ودمعت عيناها — ودموعها غزيرة على كره منها . ثم استيقظت حدتها وشدة مراسها ، وكبتت همومها ، وقامت تنام وقد اعتزمت أن تنفذ الفكرة التى تشاغلها فى الأيام الأخيرة .

« صحيت من النوم لقيتها ماشية ع الجسر وجلابيتها تحت باطها . كانت ماشية بشويش ، لكن فهمت طوالى إنها هاربة منى . . رحت جارى وراها ، حصلتها ومسكتها من دراعها :

— رايحة فين ؟ .

— ماشية . .

— ماشية فين ؟

— مغربة للجبل . يمكن أتلم على آهلى هناك . .

— لوحلك ؟

— أيوه ، خلينى فى سكتى وخليك فى سكتك .

— يابنت الحلال ، أنا قلتلك إن الغنم مش بتوعى ، صاحبهم فى المنيا ، وبينا وبينها دلوقتى مركة كعب ، وآنا راجع وياك طوالى للبلد .

راحت قايلالى طوالى :

— تغور بلدك باللى فيها .

حدق الشاب فى عليوى كأنه ينتظر منه غضبة الفلاح يقبل كل شيء ولاتسب عشيرته ، ولكن عليوى فى الوقت اللذى يتحدث عنه ، كان قد فصله عن أهله وعشيرته حاجز رقيق . لم تثر الإهانة إحساسه، فبلعها . . واستمر عليوى فى حديثه :

— « قلت لها :

— بلاش نروح للبلد . طب نروح مطرح ماتحبى .

— تعال وياى .

— والغنم ؟

— هاتهم معاك .

— مش بتوعى !

راحت لاوية وشها زى اللى زعلت من الكلمة دى . ومشت تانى ، وقربت تغيب عنى .. كل دا والشيطان بيلعب فى عقلى ».

وقف عليوى وكل عرق فيه نابض متيقظ ، أسكرته حدته فطاحت رأسه ، يقع نظره مرة على المرأة ومرة على القطيع ، ووقف الشيطان أمامه ممسكاً بالميزان يبتسم له .. ثم هوت كفة المرأة ..

.. «ورحت صارخ فيها :

— هوى .. هوى .. أنا جى .

وجريت للغنم ، حاودتهم من ع الجسر لصلبية مغربة للجبل .
ومشينا مش عامل للدنيا حساب .. وما نيش عارف أخرتى ح تكون
إيه ..

فى الليلة دى شفت منها حاجة عجيبة .. كنا فايتين على عزبة ،
لقينا فرخة فى الطريق عما تلقط .. راحت البنت طلعت من جيبها
خيط طويل مربوط فى آخره حباية درة ، ورمتها قدام الفرخة ،
راحت لقطاها .. ووقفت فى زورها .. قعدت تحك منقارها فى
الأرض ، عايزة تصرخ مش طايقة ، والبنت سحبتها شوية شوية
وحاطتها تحت باطها . وتوما بعدنا عن البلد دبحتها ..حصلنا الجبل ... »

— « استنى .. مين اللى أكل الفرخة ؟

— أكلناها سوا .

— واشمعنا ما عملتش البنت الحيلة دى قبل كده ؟

— أنا عارف .. دى كانت نازلالى بالسم .. وأنا بقول ياسابل
سترك ..

— أيوه .. اللى يسرق خمسة وستين رأس يزور فى فرخة ! !

فصمت عليوى وارتفعت له تنهدات طويلة .. وكأن القمر
قد غاب، ووصل إلى غرفة السجن المنفردة فى وسط حوش النقطة
بصيص من مصباح معلق على بعد ،.وتوالت دقات أرجل الخيل
قوية على الأسفلت، ونهق حمار بجوارهم. ثم هدأ الجو من جديد ،
وعاد عليوى لقصته ، منكسر القلب ، قد زال حنانه لزميله ، فكان

منكمشا فى نفسه يقتضب حوادثه .. لم يكن يحيا ماضيه ، بل كان يتذكر بجهد بعض ما جرى له ...

.. « قابلنا فى الجبل جماعتها .. واختلت بالكبير بتاعهم شوية .. الله أعلم اتكلموا على ، وشفتها بتشاور على الغنم ، والراجل بيبص وياها زى اللى بيعدهم ... مشيت وياهم .. بعد يومين ولا ثلاثة ، لقيت الغنم نقصت راس .. الحق دمى فار .. مسكت البنت وقلتلها : اللى عاوز يفقد حياته يقرب للغنم .. »

قالت لى : « إحنا دلوقت غجر مع بعض . . كل حاجتنا ويابعض . »

قلت لها : « غجر مش غجر أنا ما افهمش الكلام دا .. »

راحت لاوية بوزها على وقعدت ما تكلمنيش .جيت لها بعد يومين وقلتلها : يابنت الحلال أنا بعت أهلى وشرفى عاشانك .. مالت لى تانى ، لكنها كانت بتطرخم على .. وكل ساعة تقول لى : ما تخافش على غنمك الغجر مايسرقوش من بعض .. برضه ألاقى الغنم كل لما نقرب على سوق تنقص راس ولا راسين .. كدبت على .. »

— « هى ما كدبتش عليك .. أنت عامل نفسك غجرى ، وهما مش عاملينك .. علشان كده بيسرقوا منك .. دانت نهيبة لهم .. نهيبة حلال » ..

« — صفصفت الغنم على عشرة .. على خمسة .. قلت دبهده ياواد ؟ ح تطلع بلبوص والا إيه؟ وفى ليلة استغفلتهم وقمت قبل

الفجر ، ورحت جارر اللى فاضل ، ومشيت للسوق بعتهم وانفضيت .

— « استغفلتهم ؟ هما الغنم مش بتوعك ؟ »

لم يجب عليوى واستمر فى قصته :

« .. من قيمة جمعة أخدونى هيله بيله وسرقوا .. وسرقنا سوا .. كيس قطن من غيط .. امبارح بالليل مسكونا .. » .

وكان لابد أن يتذوق عليوى بعض ما يلقاه الغجر من الإهانات والمطاردة . وجاءت الليلة التى خبر فيها كيف تهجم الخيل ، ويقع السوط ، ويوضع القيد فى اليدين .. ولكن صحبة الغجر جعلته يستقبل الشتم والقيد والكرباج مطمئناً .. منذ سنة شاهد ماجرى للغجر .. فكان جزعه — كمتفرج — أكثر منه اليوم ، وهو مضروب يسير مكبلا بالحديد للنقطة —— سنة مرت عليه لم تفن من عمره قدر ماهدمت من أخلاقه وعاداته .. كان فلاحاً يهمه النيل والعمدة والنقطة وحدود أرضه يقيسها بالشبر وبالأصبع ، أما الآن فهو غجرى لا يهمه سوى اليوم الذى هو فيه .. الدنيا كلها أمامه لاحدود لها .. إن استطاع أن ينال منها شيئاً فليخطف .. وهو سعيد .

وسأله الشاب من جديد :

— « والعساكر جابتها وياك ؟

— البنت ؟ لايرضه هربت .

ـ على الله ماتلاقيش الدور دا واحد تانى تجيبه الأرض . .

ـ لا . . حتلاقيه منين ؟ أنا تو ما اطلع أخرج أدور عليها » .

ـ لم يسخر به الشاب هذه المرة بل تثاءب وتمطى ، ثم رقد على

ـ الأرض.وقبل أن ينام أنشد بصوت منخفض ، دون أن يتغنى ،

ـ هذا الموال :

ـ تقدر تسيب حبيبتك ؟ وإن كانت ياعين . .ساءتك

ـ ولا جابت المعروف الكاس دوبتهولاك . .وسقتك

ـ ولا رفعت عليك عصاية وقدامها . .ياميت ندامة ساءتك

ـ ليلى ليلى ياوعدى . . .

أبو فودة

ابو فودة

يوم وقفة العيد خرجت من (المركز) « شحنة » المساجين الذين قضوا ثلاثة أرباع مدتهم ، فضاق الشارع بحلقات الأهل والأحباب تتخاطف نصيبها وتلتف به . كادت الزحمة تزول ، وجاسر هنيدى لايزال مكانه . ليس فى المساجين غيره من بنى شقير . لم يكن فى انتظاره أحد . فلم يبق له من الأقارب سوى ابن خاله اسماعيل ، وآخر مرة رآه كانت قبل خمس سنوات عندما زاره فى طره . لم يكن مبتئساً ولا حزيناً ، ولا خطر له أن يتساءل هل إسماعيل حى أم ميت ؟ فهو مشغول بمراقبة ركاب الحمير والسائرين ، يلاحقهم بنظرة خالية من الفهم وإن كانت حية ، يشد الذهول فمه إلى أذنيه ، ولكن ابتسامته لم تولد بعد .

بعد برهة سار يقصد البندر . لم يصل وابور الطرزى حتى وقف من جديد يراقب جمعاً أغلبه نساء حافيات وسطهن غازية ترقص

حول قلة . جاءت فوقها تغطيها بملابسها وقعدت . ثم قامت ، فإذا القلة قد اختفت معها ... على وجوه المتفرجات سعادة صادقة وإعجاب : كيف استطاعت ؟ ويسأل : المتفرجون : أين وضعتها ؟ والراقصة لاتزال على شخلعتها وتقصعها . تملأ الجو برنين الصاجات .

وخرج من الوابور عدة نساء قد علق الطحين بوجوههن . على رؤوسهن قفف . كبيرة لا يحملها إلا مثل رقابهن الغليظة ، فقابلهن المنتظرات بزغاريد عالية .

فى هذه اللحظة لمست كتفه امرأة . لم ترفع نظرها عنه منذ أن وقف بجانبها ، ولكنه فى شىء من الإلهام بادرها :

— « الطحين ده لفرح من بنى شقير ؟

- أيوه .. انت مش ابن المرحوم مبارك حاج جاسر ؟

— أهو أنا .. النهاردة بس خرجت » .

احتاط الشقراوية ببلدياتهم ، وتلفت وجه لوجه ، وتنقل همس من فم لأذن ، فإذا من الرقع المتعددة ، تنشر من جديد فى ثوب خاق ، حادثته القديمة .

جاسر عامل فى محجر أبو فودة ، أمل أبيه الرجل الطيب الشيخ مبارك . ولكن نزق الشباب يقوده فى معظم الليالى لمنفلوط ، يصرف وهو مخمور كل مكسبه على حميدة : فتاة تقودها للفحش المتستر

أمها العرجاء . هو فى الجبل شرس ، شكس الطباع ، يعجب بقوته ويزهى بها على زملائه . كلما اجتمع العمال ، ولا يعدلون بطبيعتهم عن الدائرة والقرفصاء — كان هو بدون مجهود واسطتهم ، وقامته تعلوهم . لهم جلسة يومية عند سفح المحجر ينتظرون المعدية . كان المحجر فى هدوء لا يشعر بوجوده ولذته إلا من خبر ضجته . وجاسر يحكى لهم شيئاً يضحك ، فهو يصف لهم خناقة له مع رجلين على الجسر انتهت بهربها . . وعن ثور هائج مسكه من مقوده وأوقفه . أيكون أقوى من هذا الحجر الذى يرونه أمامهم ؟ انه يراهن من شاء منهم أنه يرفعه من مكانه .. وقفوا حوله . ومال جاسر. وباعد رجليه واحتضن الحجر ، يتمايل على الجبين وهو ينقل يديه ، يتفحص خصمه ويصل بين روح الحجر وروحه ، وانتفض نقضة كتمت نفسه ، فامتقع وجهه ، وبرزت عروق رقبته ... ولكنها ماتت فى جسمه ، والحجر لم يتقلقل ، وجاسر منكفىء لا يتنازل عن محاولته .

لم يطل الصمت ، قطعه صوت من بين شفتين كله احتقار واستهزاء ، عدل بالأنظار جميعها عن جاسر إلى متولى : شاب واقف فى المؤخرة صغير الرأس ، أعنق ، أذناه لاصقتان على طرفى قفاه..وأردف :

— « إذا كانت حميدة هى اللى أخذت قوتك ، احسن تسيب الحجر لراجل .. دا تقيل عليك .. »

أظهر التحقيق أن للقتيل علاقة بحميدة ، ولكن لم يثبت إن كان جاسر على علم بها . واختلف الشهود ، لا يدرون هل كان القادوم فى

يد جاسر ، أم خطفه من أحد الواقفين ؟ أخذ متولى الضربة وارتمى على الأرض ، له حشرجة سريعة متكررة يوقفها حيناً بعد آخر ، صوت حلق يابس يشرب ماء متدفقاً ، هو سيل الدم ينزف على سنّ من مخه إلى جوفه .

ولكن وحشية هذه الحادثة لم تقو على خمس عشرة سنة تفل أصلب الذكريات . وأخذ الشقراوية ، عندما نفدتّها مسهم يحيطون بجاسر يهنئونه . فللفلاح مبادرة من قلبه لاثنين :حاج يعود،أو مسجون يطلق . سلسلة من مظالم لا يعلم أولها . هى التى لا تبخس قيمة الطليق عندما يعود .

وفوق ذلك . فإن منظر جاسر يدعو إلى أن ترق له قلوب بلدياته . لم يميزه الذين يعرفونه منهم إلا بصعوبة فقد تركهم شاب حليق قوى الذراعين ، وإن كان محنى الظهر قليلا ، يمشى يهد الأرض . وأمامهم رجل فى ذقن قد عفرها الشيب ، هزل وجهه ، فعرضت عظمتا خده عن عينيه . ربما تكون قامته قد اعتدلت ولكن كتفيه تقوستا .. مشيته على الأرض زحف كأنه يسحب معه ثقلا .

وسار الموكب بأناشيدة ، وجاسر فى المقدمة . قد ولدت له الابتسامة ، فإذا هى ضحكة عريضة تبين عن أسنان غليظة . وجهه يتهلل عن بشر صادق . فى نظرته لذه تمتع ورضا لا ترى إلا فى عينى طفل .

على أن أحداً من المحيطين به لم يفهمه . ليست ضحكته من عودة حريته وحدب بلدياته عليه ، بل المفارقة تملأه سروراً ها هو —

من غير أن يحتسب — يعود لبلده فى زفة ! لم ينلها أحد من المسجونين الذين سارعوا بالتفرق عنه وتركوه . يذكرهم فى سره ويضحك . فآكل طبخته ، خير فكاهة لمن تنزل عليه المائدة !

وجاسر ذكى ، مهما قالوا عن قساوة قلبه زمن حادثته وعن وحشيته فى طرة ، يصبح فى مثل هذه المواقف حيواناً كامل الإنسانية يرق قلبه ،وتنفتح نفسه ، و يقبل على الضحكة بشغف، ولو وجدته في أضيق المواقف .

جيء من الجلسة بعد سماعه الحكم وأودع عربة السجن وجد بجانبه شاباً صغير الجسم مسود الأصابع . ربما كان جزمجياً أو طباعاً . سأله الشاب :

« طلعت بكام .

خمستاشر سنه .. أشغال شاقة .

فى طرة ؟

فى طرة ولا أبو زعبل .. زى بعضه ..

ح تنحت الحجارة فى الجبل طول النهار ؟ ياخبر أبيض الله يكون فى عونك .. »

أدار الحجار وجهه للشاب ، فإذا عليه نفس التهلل والرضا واللذة التى تنطق بها عيناه وضحكته الآن وهو يسير فى رأس الموكب .

الضحكة واحدة رغم بقائه خمس عشرة سنة سجيناً . قد تكون لعبت بجسمه ما شاءت ولكنها ، لم تمس روحه . وها هو يعود كما

كان ، شاباً نفسه متفتحة للحياة ، ولا يدرى أحد الآن بعد هذا الغياب ما مقدار جوعها رغم هزاله ، وما بين قدميه والأرض من نضال .

ودخل الموكب البلد ، ووصل الخبر إلى إسماعيل ، فجاء بذراعيه يجرى إلى ابن عمته . شاب مصفر الوجه متردد متلعثم ، أربكه وصول جاسر . وقفت زوجته تنادى الجيران تشحذ منهم دستاً ، (١) ولأخذ هو يجرى هنا وهناك ، حتى استلف ثمن رأس سكر ، وخرج يسقى الشربات للجيران وقد تجمعوا عليه يهنئونه هو .. فى سره يقول :

— « أهى مصيبه ونزلت على » .

وهبط الغروب على البلد ، وأخذ كل يعود لداره بدوابه وأغلقت الأبواب ، وهمدت أجسام أضناها الشقاء ، ونعست جفون . ولما هدأت الضجة ، سمع فى قبلى البلد نواح ضعيف ونهنهة .. هى أم متولى : جاءها خبر عودة جاسر فجدد مناحتها .

ثغرة فى جدار الحوش السماوى تصل منزل إسماعيل برحبه مسورة كان أبوه يخزن فيها حطبه ويربط جاموسته . ولما أكل الابن ماله ، بقيت مهجورة تجرى فيها الكتاكيت . لها باب من خشب الصناديق يفتح على أرض نخيل مهملة .

فى ركن منها مسقف بالجريد ، نزل جاسر مؤقتاً حتى يجد عملا ومسكناً . وفى البلد عرف ، لا يقر منزلا يجمع رجلين وامرأة ..

---

(١) اناء اسطوانى كبير .

فجاء إسماعيل بحزمة من البوص فى قامة الرجل وسد بها الثغرة وحلوق الجيران . ليس لهم بعد ذلك ما يشكون منه . ولكن فى قلب إسماعيل يقيناً بأنها « مصيبة ونزلت عليه » . ماذا تفعل فى جاسر حزمة البوص ؟ هو منذ الصغر يتحاشاه ويتهرب منه . طبيعتهما ضدان . مال جاسر إلى الخمر ، وعمد إسماعيل إلى الأفيون وحسن كيف (١) خشونه الأول جرته منذ الصغر إلى المحجر ، وأتلف الثانى ما تركه له أبوه وهاجر من البلد . رأى جاسر فى إسماعيل أنه عبيط خام . ويشكو إسماعيل لكل من يعرفه عن شقاوة ابن عمته وأذيته لخلق الله ..

ولو كان متزوجاً من غير نرجس لهان عليه الأمر . فهى امرأة (بحراوية) يعلم الكل عنها أنها (تتاية) ، أكثر فهماً لطرق الإغواء للرجل من فتيات البلد . يقولون انها سبب فقره ، لأنه يجرى وراء ذيلها ، ثم يحسدونه فى الوقت نفسه عليها . فى ضميره وسواس دائم أن هذا الحسد يخفى تحته نوعا من الاحتقار ، كأنهم يستكثرونها عليه . إيمانهم بأنه تحت قدمها ، هو الذى يقلل من الإشاعات التى تصل إلى أذنيه عما تفعله ، من ورائه . وهو الآن لا يستطيع الثقة بإخلاص زوجته ولا بعفافها ولكنه يعيش كما يعيش زوج كل امرأة خليعة - إذا كان يهواها : تأجيل مستمر لليقين ، واستساغة دائمة للبقاء على الشك .

وزاد من هموم إسماعيل أن جاسر يهبط عليه فى وقت توقيع الحجز

---

(١) نوع من التبغ المخلوط بالعسل يدخن فى الجوزة .

(على بياضه) (١) وغرقه فى الدين لرقبته، وحرصه على « ربعين ذرة » يقيمان مع المش والبصل أوده .

ظل جاسر فى أول الأمر بعيداً عن التفكير فيما وراء حزمة البوص ، فقد اتخذمن ركنه منامة لا يأوى إليها إلا مع الليل فى أول أيامه أخذ يتجول فى البلد والغيطان ، وزار منفلوط مرات متوالية . ثم ترك ذلك كله و (تزبن) على دكان خليل، حيث وجد من العجائز وبعض ضيع الشباب أصدقاء يتناوبون شرب أقداح شاى معكرة كالحبر .

فى هذه القهوة سمع عن خيبة إسماعيل فى زواجه من هذه البحراوية هو رجل « هايف » لا يعلم من ملاعيب زوجته شيئا ولا هم يعلمون ولكن ليست على عيونهم مثل عينيه غشاوة . ماذا تفعل فى البندر يوم السوق ؟ إنها تزوغ من وسط بلدياتها وتختفى من أول النهار لآخره .

أخذ جاسر — وقد ملأت هذه الأحاديث أذنيه — يسارق نرجس النظر . لمحها مرات قليلة تروح وتغدو فى دارها . ثم رآها تسير يوم السوق وقد شدت طرف طرحتها على نصف وجهها ، ولكن العين الوحيدة التى وقع نظره عليها كبيرة واسعة . متلفتة، تجوب ما حولها فى لحظة ، وتفهم التيارات الموجهة إليها فى غمضة .

وتربص جاسر إلى أن وافقه يوم خرج فيه إسماعيل مبكراً إلى الغيط . ودخل الدار فوجدها بجانب الفرن . شفته السفلى متضخمة قد تدلت ، وعيناه جشعتان :

(١) الزرع فى الحقول قبل جنيه .

— « صبحت بالخير يانرجس .

— صبحك الله بالخير .. ابن عمتك نويه طالع للغيط » .

الحوش سماوى يكشفه الجيران. فاتجهت نرجس إلى غرفة صغيرة منحدرة ودخلتها ، فجاء جاسر ووقف على بابها . لم ير فى مبدأ الأمر شيئاً ، ثم اتضح له بعد وقت حبل عليه ملابس نسائيه عديدة كلها فى ألوان مبهرجة ، تزينها دنتلا وشرائط وتطريز وزركشة .

وقفت نرجس تنظر إليه . هو موقف مناجزة وقياس قوة بقوة . فهى أبعد ما تكون عن القروية الرعديدة التى لا تخلو مع رجل إلا وملأت رأسها فكرة واحدة : أنها عرضة لهجومه ، وأن انتصاره عليها لا يتوقف على إرادتها ، بل على الظروف . فلو كانت ملائمة له خيم عليها جو من التسليم والعجز ، وقد تناضل قليلا ولكنها تنتهى دائماً بالخضوع ، وأغلب الأمر أنها تنسى نفسها وتشترك فى النهاية فيما أكرهت عليه. فهى تعيش طول عمرها ونظرها لنفسها أنها معطفأ شهوة ، لا يربطها بالرجل إلا قانون واحد : أن تحرك — من بعد — من شهوته دائماً بحيث لا تخبو لها نار . لا تقدم ، ولكن إذا رغب ، عليها أن تعطى .

وكان وجه جاسر أدكن اللون ، يفيض من عينيه خبث غير جبان .

— « يعنى غبت يانرجس فى السوق السبت اللى فات ! ! »

لم يكن استفهاماً ، بل لهجة انتصار تحتها تهديد ..

— « عبال ما بعت الفروج . . »

وأقبلت مرتبكة على ملابسها تطويها فهى تعلم أن تطلع جاسر لهذه الأثواب سيورطها ، على أن أحداً من أهل البلد لم ير هذه الملابس ، حتى ولا أحب جيرانها إليها

وضحك جاسر بهدوء وكأنه يهمس لنفسه

— « والله إسماعيل متهنى ! ! »

وجلست نرجس تصف الملابس فى صندوق أحمر .. هى ثروة لامرأة لا تبدو فى الطرق ، ولا يراها الناس إلا فى جلباب أسود يهبط إلى قدميها ، أبيض الذيل يكنس التراب ، فنرجس تموت على ثوب جديد ، لا تفرط فى جلابية مهما قدمت أغلب هذه الملابس من أيام زواجها فى بلدها (موش)

نزل إسماعيل بهذا البلد بعد أن ترك السلطة (١)، يعمل لدى أحد المقاولين ووصله عن نرجس — وكانت إحدى جيرانه — أخبار خلاعتها ، وطمع أن يتزوج من بحراوية مثلها فهو بعد تجواله فى مصر والشام لا يقنع بامرأة من بلده فى هذا الوقت جاءه تعويض السلطة ، وأخذ يصرف الجنيه وراء الجنيه حتى استلفت نظرها . فتحايلت على زوجها إلى أن طلقها واندلقت على إسماعيل وقد بهرتها ثروته . تزوجته ، ولم تلبث يدها أن نفضت جيوبه فى شراء ملابس من كل صنف ولون وانتهى العمل و نفد التعويض ، فعاد إسماعيل لبنى

---

(١) لفظ كان يطلق على الادارة العسكرية البريطانية التى كانت تصيد الفلاحين لتجنيدهم فى فيلق العمال فى الحرب العالمية الأولى .

شقير يرتزق من إيجار فدانين ، ويعيش عيشة فلاح لا يعرف النقود إلا وقت المحصول

فى أول الأمر لم تنقطع شكاية البحراوية من غربتها وعدم قدرتها تحمل الفاقة التى وجدت نفسها فيها فاسترضاها إسماعيل جهده ، وحرم نفسه من كل شيء ليجد ما تشترى به « الكستور » و « البرنس عزيز » (١) وجاءت سنوات خاسرة ردت إسماعيل فلاحاً لا يجد سوى جلبابه الأزرق يعيش صدره ويرقع ظهره مرات . وعاشت زوجته بصندوقها ، لا تتنازل عن مطمحها أن يزيد ويغتنى . توهمه أنها تشترى بعض ما يراه من ثمن ما تبيعه من بيض دجاج تربيه

والحقيقة ، وهى البحراوية المجربة ، كانت لأجل هذا الصندوق تفرط فى نفسها بمنفلوط يوم السوق لأحد مشايخ الخفر . وتوصلت على يديه ، وارتقت إلى معرفة بعض شباب الموظفين ولأجلهم كانت إذا خرجت تدس فى قعر قفتها — تحت البيض وربطة الكتاكيت الجلباب الذى يروقها بعضهم يقنع به وبعضهم تدفعه الحاجة للمرأة ، ويأنف من ثيابها وقدميها . فيحميها ويلبسها من ملابس الرجال .

وأتقنت البحراوية دورها ، فهى تباعد ما بين جريمتها وبلدها ، وتتصل بوسط ليس من الفلاحين . ولكن الفحش لا ينكفىء عليه ماجور ، وفاحت رائحة سرتها ووصلت فى بلدها إلى أنوف خلقت تتشمم الجو .

---

(١) نوع من الأقمشة النسائية الأجنبية .

وخرجت نرجس من الغرفة ، فأمسك جاسر بيدها وأراد أن يدفعها بجسمه ويدخلها الغرفة ، ولكنها انفلتت منه وكرت إلى الفرن فتبعها جاسر ومال عليها يقول :

— « حرام عليك .. أنا بقى لى خمستاشر سنة . . »

واستند على الجدار ، وشعر بشيء يجذبه للأرض ، تنفسه سريع وعيناه مشتعلتان . استيقظ فيه وحش طال رقاده ، فلما هم يقوم لم تسعفه قوائمه . هو هائج تجمعت قوته فجأة ، ولكن لا يزال فى (دوخة) اليقظة .

وجلس جاسر القرفصاء .. وجسمه كله يرتعش .. ثم مالت رأسه وضمها بين ركبتيه بيدين متصلتين .. وتملكته هزة متكررة . نوبة تشنج صرعته . . .

أسرعت نرجس للزير ، يلاحقها من جاسر شخير يلمسها فى أذنها ويتسرب إلى أعصابها . وعادت إليه تهم بصب الماء على وجهه .. ولكنها عدلت .. لا يزال هذا الشخير يأسرها لا يعلم أحد ما الذى أثار فى ذهنها .. لعلها ذكريات حوادث قديمة .. كانت فيها عبدة قن (١) لجسمها . . فى أول شبابها كانت تسكر فى بعض الأحيان من عرقى البلح وتنسى نفسها . وعند اليقظة تحس بأثر مجهود صوتى فى حلقها ..

ألقت الماء على وجهة فشهق .. ورفع رأسه ، فاذا ببصره يقع على عينين كلها خضوع واستسلام . ربما سحرها ما رأته من القوة

(١) العبد اذا ملك هو وأبواه يستوى فيه الاثنان والجمع والمؤنث .

تنفجر وتصرع رجلا. وربما كان ما ، أته فى حالة جاسر من رغبة صادقة ملحة . . من أجلها هى .. ولكن لا هذا ولا ذاك إن هو إلا قدر محتوم يهبط على الخلائق ، فى حواشيه حوادث تسمى مرة مصادفات ومرة موجبات ، وما هى إلا نغمة من نغمات الكون فى دورانه .. ليس للإنسان فيها إلا ما للثقب فى صفير الناى .

وقام إليها ، وماتت يده على معصمها . جرها معه . لا يزال محنى الظهر ، خطوته سريعة ، وأغرب شىء فيها أنها قصيرة ، شىء خفى يشد قدميه الواحدة إلى الأخرى ..

وسترهما ظلام الغرفة .

. . .

تغيرت حياة جاسر . هو منذ عام ينام إلى الضحى . ويقضى سحابة النهار بدكان خليل . لم يزر أبو فودة . فغياهب السجن قطعت فيه عرقاً يربط الرجل بمنبته . وهو — بعد هذا السجن الطويل — عن العمل عزوف . يود لو تظل حياته كلها حرية .

لكن نرجس أشعلته ، رده قربها إلى ماضيه ، وأزال عنه نقاهة السجن . وإذا به فى اليوم التالى لا جتماعهما يخرج من مسكنه مع الفجر ويترك البلد عن يساره ، ويجد فى سيره كأنه فى يوم من أيام شبابه .. يسرع كعادته كل صباح ليلحق المعدية . خمس عشرة سنة مرت كحلم ليلة !! الهوة التى فغرت فاها فى حياته لم تقو على زمن له من القفز ما يصل بين ضفتى أوسع الثغرات .

ليس فى الطريق مزارع ، وكل ما حوله أرض فضاء رملية تغوص فيها قدماه الثقيلتان ، ويجاهدبهما — وهو مسرع — يساعدهما بحركة من كتفيه ...

بعد برهة وقف ذاهلا ... لم يبق بينه وبين النيل سوى خطوات قليلة ، مع أنه يذكر أنه كان يصل للنيل بعد سير طويل .

وقت شبابه كانت الموردة (١) تقترب من البلد أو تبتعد عنها بمسافات لم يلحظها جاسر ، لا لأنه ليس فلاحاً تهمه القصبة والشبر ، بل لطول مجاورته للنيل وتعوده على تصاريف هذا المخلوق العجيب ، كحارس الأسد : يسمع أخفت همس المتفرجين عن البقشيش ، ولا تحس أذناه شيئاً إذا زأر الوحش من على كتفه ..

ولكنه فى هذا اليوم لم يتمالك نفسه من الاندهاش . زالت سطوة العادة وتحجر الفكرة أمام قوة النيل . فى خمس عشرة سنة أكل من بنى شقير مسافة رحيبة ، كان جاسر يمشيها فى أكثر من نصف ساعة .

وأشرف على الموردة والشمس لما تشرق . على بعد « كوشة » جير تحترق ويظللها الدخان .. أمامه قلوع بعض المراكب يسمع ضوضاء الجالسين فيها .. ووقف جاسر على مرتفع من الجسر . للريح صفير ، وللنيل تحته دمدمة خفيفة .. هو فى عز فيضانه ، يطل عليه كالشبح ناشىء من طينه . الطبيعة سواء فى الاثنين ، ليست الشهوة قاصرة على الحى .. كلاهما يرزح تحت عبء فورة واحدة ...

---

(١) ميناء القرية على النهر

فليس أدل على الشهوة من النيل وقت الفيضان . هو طول العام طفل نحيل تحمله مصر حرصاً على اليدين ، شفتاها على شفتيه ، من رحيق فمه تعيش . ينتهى العام وثدى مصر قد جف . فيه لهيب كله نداء للارتواء . وللطبيعة انقلابات لا مقياس لقوتها ، فلا يأتى الميعاد حتى تنتفض مصر. تحس الرشفة تنقلب قبلة حارة تنفجر بها شهوات حبشية تتجمع طول السنة . ويقفز الطفل من بين يديها فإذا هو عملاق يد تشد شعرها . ويد تهصر خصرها، ثم يطويها تحته فتغيب . كساؤه لها من ماء طحينى ، له فى وسط الوادى هدير ، وعلى ضفتيه رفرفة . ويرتوى فى جوف مصر كل شق ، وتحيا كل عين ، ويغور من البلاليص ماؤها العفن المدود .

لا ترى قوة النيل فى الدلتا .. هو لا يجد حريته إلا مع الفيضان ، فإذا تخطاها وراء القناطر شعر باللجام فى فمه .. الجسور بجانبيه الغمامة تحيط بعينى الفرس ، يركبه كل بلد شوطاً ويسلمه لمن بعده .. نقترب من البحر وهو شيخ مرت عليه آلاف السنين ، يجرى شوطاً واحداً لا يتغير حتى هد الملل والتعب قواه . تنازل عن نضاله مع الأرض ، فى مجراه المرسوم يجرى ، هو الذى طالما تقوى وشق ، أو تحايل ولف ، يخلق الجزائر ، ويبلع البحيرات ، تملأ حلقه سدود من كثيف النبات فلا يغص ، وتخدعه مستنقعات فى التيه نهايتها فلا يضل . .

كل هذا كذب .. فى الصعيد يثبت النيل أنه رغم كل هذا لا يزال شاباً مفتوناً بنفسه وبقوته .. ليست آلاف الدوامات إلا من دمه الفائر . له فى كل موردة يد تغازل الفتيات . بين كل حين وآخر تقتنص فريسة لا تشبع لها نهما .. .. للشواطىء منه عبث الجبار .. وها هو مع بنى شقير ، فى سنة يمنحها أرضاً خصبة ، وفى سنة يسترد هديته ومعها أجرها مضاعفاً .. فى خمس عشرة سنة أغار على أرضها يأكل منها كالمفجوع حتى اقتربت الموردة من البلد للدرجة التى أذهلت جاسر .

ولفح وجهه ريح رطيب ، فامتلأت رئتاه وزاد تنفسه عمقاً ، وفصل جسمه عن بهمة الليل بصيص من الضوء الأحمر يبزغ من وراء الجبل ، رمى له على الأرض ظلا طويلا ، وعلت قامته ، ووقف لحظة يحدق فى أبو فودة . ثم هبط حيث المراكب .

فى طريقه إلى المعدية ألقى جاسر السلام على رجلين جالسين على الأرض ، ولما تبين أن أحدهما هو شعلان صاحى أحد مستأجرى محاجر الحكومة ، كر راجعاً وجلس أمامهما ..

— « ياعم شعلان ، أنا عاوز أرجع للشغل ، خلينى وياك . أنت أحسن من غيرك وطيب .

— أمال انت معدى لمين ؟

— أنا خارج لسه على باب الله . . والحمد لله اللى قابلتك .

— طيب روح النهاردة اشتغل فى نمرة ٦ ، ولما تشوف شغللت

الحساب يجمع . أنت ما معكش عدة ؟ أنا عارف . قولهم هناك يلوك العدة اللى سابها الواد على » .

وقام جاسر يلحق المعدية فالتفت شعلان لزميله يقول . :

— « دا حجار كويس ويعرف الشغل .

— مين ده ؟

— آه .. أنت صحيح ما تعرفوش » .

وبدأ شعلان يقص قصة جاسر . استمع لها عبد المسيح بهدوء ، لايلفظ بحرف ولما انتهى أقبل على حجر صغير فى الأرض وأخذ يلعب به .

عبد المسيح — خفير المحجر النظامى

عبد المسيح — خفير المحجر النظامى — هو صاحب الطربوش الوحيد فى الجبل ، يرى فيه كالغريب الضال . جاء لوظيفته بعد أن ترك خدمة الجيش توآ . لم ير محجر طوال حياته ، ولم يعاشر حجاراً من قبل ، ورغم ذلك — ورغم أنه غريب عن البلد ، وديانته تخالف أغلبيةسكان الجبل—فإنه استطاع بعد وقت وجيز أن يفهم أسرار المحجر ، وأنواع الحجر ، ودقائق العمل ، وأشخاص الحجارة ، اللصوص منهم والأشراف ، بل عرف كيف يكسب صاحب كل محجر ، وكم يبلغ ربحه . يأتيهم مع الصباح المبكر فى يده البندقية، يجول هنا وهناك فيفهم السرقات التى جرت فى غيابه من محاجر الحكومة . لم يشتك للمركز مرة واحدة بل ممكن أن يصل إلى غرضه

يضرب رجلا برجل ، ومصلحة بمصلحة ، فقلت حوادث السرقات وهدأ الجبل عن ذى قبل . وربطه مع العمال صداقة ، هى من جانبهم مشوبة باحترام لا يمنحونه الا لمن يعلمون أن نفسه لا تقل عن نفوسهم صلابة .. وقال شعلان :

« ما حبش لما تسهم .. قلت كام مرة قول اللى فى فكرك ولا تخبيش .

« أخبى على إيه ؟ أنت غلطت .. الراجل ده ما عدش يفلح ، رح يتعبك فى الشغل . خمستاشر سنة سجن ! مين عارف ح يعلم الحجارة إيه من اللى اتعلمه هناك .

— انت عارف (الرى) مستعجلنى ، وتو ما لقته ...

تركه زميله وقام .. الحديث لم يعجبه .

. . .

تحايلت نرجس على التهرب من جاسر ، فهى تخشى افتضاحها فى البلد ، وخسرانها أقوى ساتر لها : زوجاً غافلا . على أن يوم السوق ثغرة فى تحصنها لا تستطيع سدها . فمغامرات كل تاجرة تنتهى حتما إلى عادة صلبة تدخل برنامج حياتها ، فتؤديها بلا تفكير كأكلها وشربها .

فى منفلوط ، سوقاً بعد سوق لاحقها جاسر وهو هائج مغيظ . فليس أكثر تمزيقاً للقلب وبعثاً للغيرة من عشق امرأة تصد فى حين أنها مبذولة للكثير . وزاده تعلقاً بها أن ذهنه ، فى فورته الفجائية .

وجد من هذه المرأة وعوده قواه ، شعوراً لا يقدم أحد شقيه إلا مع الآخر ، وأصبح كالجاموسة العتيدة يكاد يضرها اللبن فى ضرعها ولا تدر به إلا لحالب معين .

وجدها أمام بائع يعصر على صدره يدها ليلبسها « غوائش » زجاجية ضخمة مبرقشة ، فجاء إلى جانبها ودفع لها الثمن ، فلم تمانع .

— « إذا كان نفسك فى حاجة قوليلى .. ربنا محنن على دله قى ، وأشيلى معلن .

— ياجاسر سيبنى فى حالى ما تخربش على ..

— انت اللى ما تخربيش على .. أنخرتها أنا اللى ح أضيع عمرى عليك . . شوفى .. او تكونى إنت مين ، ومهما عملت ، أنا مش ح أسيبك . فهمتى ؟ »

ظهرت الحيرة على وجهها ، فهى بعد تفريطها الأول بين أن تداوم أو تقاوم تخشى لسان جاسر ، وهو يعلم سرها ، أن يجرى باسمها فى أنحاء البلد . كل خوفها أن تشتهر سيرتها ، ولم تفكر لحظة فى زوجها . فاهتمامها بإسماعيل محى منذ أن ضاعت منه الإجارة(١) ، وأصبح أجرياً بالطورية ، (٢) يقضى أكثر الأيام عاطلا ، لا شغل له سوى النوم فوق الفرن . يوم وراء يوم وهو فى خمول لا يسأل إلا عن أكله . لاينقصه إلا أن يتكلم ويقول إنه فاهم . وموافق . . مادامت من وراء سعيها ستنفق عليه .

---

(١) حقه فى استئجار أرض كان يزرعها .

(٢) اسم الناس فى الصعيد .

ومتى هبط الزوج إلى هذه الدركة ، أصبح إصبعاً يشير لا درعاً يسر ، ولكنه - على الأقل - ينفع الآن حجة تتهرب بها .

— « إنت عارف إسماعيل بارك فى البيت .

— إسماعيل مين دا اللى مالى عينك ؟ قولى إنتى اللى مش عاوزه »

هل تقطع الخيط وتواجه الفضيحة ؟ لم يكن مقصدها إلا أن تطوح بجاسر :

— « أهو شفلك شغله فيه » .

ثم افترقا . . ولم تخط خطوتين حتى أشرق عليها إدراك غريب ، كانت فلتة لسان ، ولكن هل فهمها بمعنى آخر ؟ وتملكها اضطراب شديد لم تعهده من قبل ، وبدأت خطوتها تسرع على غفلة منها .

فليفر الإثنان معاً .. وماذا يهمها .. لفت رأسها فجأة روح من عدم المبالاة و « ضرب الدنيا طبنجة » ، هى إمرأة تتاجر بعرضها وجدت نفسها فى ركن .

ولكن البحراوية غير سهلة .. وليس كل تفكيرها سلبياً .. فى بعض الأحيان تقوم بنفسها نزعات من الشر لم تتح لها الظروف أن تتعرف مداها .. وكأنها غاظها أن يلعب بها ولا تساهم ، فإذا بها تكر راجعة تبحث عن جاسر ، لحقته فى الطريق ولمست كتفه .

— « إذا كان كده .. أحسن تعزل من المنامة اللى حدانا .. شوفلك حتة غيرها .

وتلاقى النظران ثم ولت مسرعة

وسار جاسر يتمهل فى خطوته . كان غير واثق من فهمه ، فإذا بهذه اللمحة السريعة تبدد شكوكه .. وجعلته يدرك ، لا الذى تقصد نرجس بابتعاده عن جيرتها ، بل أنارت له طريقاً واضحاً يسهل عليه بعد ذلك الوصول لنهايته.. القروية هى المدبرة ، وخريج السجون تبع !

وكان فى حاجة إلى التفكير فى هدوء . فأخذ طريقه إلى قهوة يعرفها فى نقطة المومسات .. وعلى دكة خشبية جلس ، تفوح فى الجو رائحة تخمر شديد من بوظة (١) مجاورة ، وتصل إليه نغمات رقص على مزمار وطبلة ، وأمامه عدة نسوة يفترشن الأرض تحت ظل شجرة على حافة الجسر . .

ولكن جاسر ليس هناك.. ترك إسماعيل وأخذ يفكر فى نرجس عندما يحوزها لن تجد فيه زوجاً « نعجة » كإسماعيل . فى أول لياليه سيسويها بضرب موجع ، لتفهم أنه من عينة أخرى لا تحتمل اللعب على الذقون .. سيحبسها فى الدار ويقفل عليها بالمفتاح ..

وشدت يده بغضب على جوزة التمباك .. وتكررت نفخاته ، يجاوبها الماء بكركرته ، وغاب فى تفكير .. على يديه دم رجل ، ولكنه لم يقتله إلا فى لحظة غضب دون أن يعى لنفسه . أما الآن ، بعد خمس عشرة سنة فى السجن ، فهو قادر على أن يصنع المصيدة ويستهوى فريسته إليها .. ولكن مشروعه يحتاج للصبر . سيروض

(١) مكان شرب البوظة ، وهى عجينة مشمر مسكر .

نفسه عليه . قصة يذكرها الآن لأحد زملائه فى طرة .. قتل له ابن فى ريعان شبابه فى جمعة طلبه للجهادية،ولم يكن لغريمه ذكر يثأر منه سوى صبى يلعب ، فصبر عليه ، إلى أن جاء ميعاد فرزه، فرماه بالرصاص .

هذا هو الصبر .

. . .

وأثبتت الأيام أن عبد المسيح على حق. فالحيوية التى استيقظت فى جاسر جعلته لا يستطيع الصبر على معيشة الحجار ، ينكفىء على عمل واحد من الفجر إلى المغيب . وعلى مهل بدأ نقلل من عمله ، ويتداخل أكثر فأكثر فى إدارة المحجر . يوماً يفرق بين عاملين ملتحمين ، ويوماً يحمر عينه لمراكبى يعاكسهم فى الشحن. ولسابقة خبرته فى المحجر ، وفى طرة ، لم تخب له نصيحة واحدة . ولم يمض زمن طويل حتى أصبح من جديد ، رغم غيابه ، مرجع العمال جميعاً ، يحترمونه وينصتون لرأيه .

وأغمض شعلان عن هذه الحركات عينه . هو جم المشاغل ، كثير التغيب عن المحجر، ووجود رجل مثل جاسر يوفر عليه وقتاً يضيع فى سياسة منازعات عديدة عقدتها لاتحل إلا إذا جاء ورأى وحكم . وانتهى الأمر بجاسر إلى أن أصبح ريساً للمحجر نمرة ٦ .

فى ليلة جلس جاسر فى دكان خليل يتحدث بصوت مرتفع ويضاحك الحلاس ، ويطلب لهم على حسابه دوراً من الشاى .. ولما جاءت الأكواب التفت إليهم يقول :

— « ياولاد باركولى .. النهاردة قريت الفاتحة فى الجبل مع حسين رمضان بجوزنى بنته ، حكايه زى الحدوته .. أعمل إيه ؟ عاوز أجوز من يوم ما رجعت . رزقى دلوقتى متسع والحمد الله .. ومن يوم ما (عزلت) عن ابن خالى إسماعيل لقبلى البلد ، وأنا مش متهنى ع اللقمة ، عاوز لى مرة تخدمنى » ..

ولما ترك القهوة دار حديث الموجودين عنه .. كيف صار الآن فى نمرة يبعثر القوده، ويشترى قلدرعزفى البلح ، ويجهز عليه فى يومين . .

— « والله يقوم بجميل إسماعيل الأول .. الراجل شوية شوية ح يسف التراب ، وأولى نقرش من قريبه ..

— عشان تصرفه البحراوية على كحلها ؟

— إزاى؟ أنا سمعت أنه خده وياه للجبل وشاف له شغله هناك ...

— حقيقى .. امبارح شايفهم الاتنين معديين سوا ..

— إسماعيل من ساعة ما سافر للسلطة وساب طينه ، ماعدش يفلح . .

— صحيح . . هو يعرف إيه فى شغل الحجر . . . »

وهذا ما قاله إسماعيل من قبل ، ولكن جاسر طمأنه وأفهمه انه لن يعمل إلا فى نقل بعض الأحجار من حافة الماء للمركب . بين لإثنين خطوات ، سيكون معه يساعده ، ثلاثه قروش يوميته ..

وإسماعيل — على رأى بلدياته — فلاح خائب ، لا تربطه بالأرض ما يربط باقى الفلاحين ، يموتون ولا يفارقونها ، وساقه الجوع إلى الجبل مرغماً وراءه تحريض نرجس . .

— « ليه ما تروحش . . انت مش راجل زى الرجالة ؟ »

سار إسماعيل إلى الموردة ونزل فى المعدية كسير القلب ، أمامه على الضفه الأخرى محجر أبو فودة غير واضح ، فلا تزال الشمس وراءه ولكن بعض الاصوات يقذفها الهواء متفرقة من الجبل إلى أذنيه .. كلها وقع الحديد على الحجر ..ولم تتوسط المعدية النيل حتى استعاذ المراكبى من الريح . وطلب من الله المعونة لأصحاب المراكب الذين سيسوقهم سوء الحظ للمرور فى هذا اليوم . .

لا يجهل مراكبى واحد يجوب الصعيد اسم أبو فودة . . إذا دنا منه توترت أعصابه وزاد صراخه ،وهم إلى قلوعه يربطها . . فإذا جاوزه حمد الله وجلس يغنى إن كان شاباً ، أو يقضم من لقمة و « يبربش » بعينيه فى نور النهار ، إن كان شيخاً . .لا مأمن لأبو فودة ، تحس المراكب أمامه أن الجبل واقف لها بالمرصاد كالشيطان ينفخ عليها ريحاً خبيثة تملأ القلوع وتميلها للماء . . بعضهم يعلل السبب بأن الهواء يضرب الجبل فيرتد فى دوامة خفية تهبط على القلوع فتصرعنها بحراً . . ولكن المراكبية كلهم يعتقدون أن فى أبو فودة شيئا مرصوداً من القدم يدفع بالمراكب لحتفها ، لا شأن للهواء أو الريح . فكم من مركب قاربته وقلوعها ترفرف ، ليس فى الجو نسمة ، فإذا جاءت

تحته انتفخ القلع وترنح المركب من ضربة خفية، وانقلب ظهرها فوق الماء . .

وجلس إسماعيل يستمع لهذه الأحاديث فتملأ قلبه سخطاً ، وحمل هم المعدية تنتظره كل يوم صباحاً ومساء . ثم جاوزت المعدية وسط النيل ، وبدأت الشمس تعلو رأس الجبل وتلقى أشعتها على سفحه المواجه للنيل ، فظهر الحجر أبيض ناصع اللون يرتد عنه الضوء في بهرة ووهج . . وتبين إسماعيل مصدر الأصوات التي وصلته وهو على الشاطىء . . كل الجبل مرشوق برجال معلقين على سفحه مربوطين من وسطهم بالحبال . في يدهم حديد يضربون به الجبل ، ويرتد الصدى من كل النواحي ، بعضهم يغني وهو يدق ، وبعضهم منهمك في عمله، لا تتأخر ضربة عن ميعادها الموزون .

هي أول مرة يعدى فيها. كان يظن طول عمره أن الجبل بعيد عن الماء بمسافة ، ولكنه هذه المرة رأى كيف يلطم الماء الحجر لطماً . بعض الأحجار المتناثرة غرقى في الماء لنصفها كيف ينبت من الماء مثل هذا الصخر قد يبدو كأن النيل راكع أمام أبو فودة يغسل له قدميه ولكن دمدمة التيار يضرب الحجر ، عداوة صريحة بين القوتين . . النزاع طويل . . منذ القدم ، فليس الجبل من طينة شواطىء الوادي :

. . عناصر من الطبيعة متكافئة ، ينسل من بينها مخلوق ضئيل . إذا وقف على سفح الجبل تبينت حقارته ، ولكنه الأقوى ، يركب ظهر أحد الخصمين ويعلو هامة الثاني بيده من الحديد والنار ما فت

فى دروع الجبل . . يقطع من لحمه كل يوم ولا تمتلىء عينه حتى أصبح الجبل كجاموسة الفلاح ، من طول جوعها ، بارزة العظام على الجنبين ، بينهما بطن مهضومة .

وفجأة دوى فى الجو صوت مرتفع .

— وردة . . . وردة (١) . . .

تناثرت شلة العمال الذين ينقلون الأحجار أمام الموردة وجرى إسماعيل مرتبكاً وراءهم . وخطف بصره وسط السفح لهيب من نار وسط دخان أسود ، يعقبه سحاب أبيض . . وفى اللحظة عينها ملأ أذنيه دوى مكتوم هلع له قلبه ، وتدفقت أكوام الحجر كالمطر ، تتدحرج . . تتدحرج . . الكبير منها يصل إلى الماء . والصغير قد يقف فى منتصف الطريق .

والتفت إسماعيل يسأل أحد الحجارة وهو يشير إلى حجر كبير استقر على بعد من الموردة :

— « وداح تشيلوه إزاى

فأجابه العامل وهو يضحك .

— « ما تخافش . . داح نكسره باللغم كام حته . .

شعر من هذه الضحكة أنه سيعيش غريباً عن الجبل والعمال ، كلهم قساة لا شهوة لهم فى التحدث وقت الشغل ، وأغرب شىء فيهم أنهم من سحنة واحدة لا يفارقها العفير (٢) . . أيديهم غليظة ،

---

(١) كلمة تحذير محرفة من الكلمة الايطالية الرلجى بمعنى احترس وكانت شائعة على السنة الموذية فى الاسكندرية بنفس المعنى .

(٢) التراب .

ظهورهم محنية، هل تفرعوا جميعاً من أصل واحد ؟ أم هو الجبل لا يستهوى إلا طرازاً خاصاً ؟

واستمر إسماعيل فى نقل الحجارة أياماً متعددة حتى ألف الجبل والعمال. واعتادت أذنه دوى اللغم وترجيع الصدى ، وأصبح يفهم الألفاظ التى يتبادلها زملاؤه ، ولكنه ظل رغم هذا فى مرتبة الصبيان أجراً ، لا يتعدى عمله نقل الحجارة من مكانه إلى مراكب الشحن .

فى فترة من فترات سخطه ، جاءه جاسر يفهمه أنه لو كان غيره مكانه لتشجع قليلا وترك هذا العمل البسيط إلى ما هو أربح .. وأخذه إلى سفح الجبل وأراه علامة.. هنا يراد فتح ثقب للغم جديد .. ما عليه إلا أن يكون معه المدق — عود غليظ من الحديد رأسه مدببة ، والملعقة سيخ طويل فى نهايته كف صغير لتنظيف الثقوب — ويدق فى الحجر إلى أن يستحدث به ثقبا مستقيما طوله نصف متر تقريبا .. ليس يطلب منه شىء أكثر من هذا .. وعلى جاسر بعد ذلك ملؤه بالبارود وكبسه وإطلاق النار فيه .

لم يفلح إسماعيل فى أول الأمر فى إحداث الثقب . وعدل به جاسر عن هذا الموضع إلى غيره ، ولكنه — بعد أيام — سار فى عمله وأخذ يمر على الأمكنة التى يجد فيها العلامة ويشتغل .. هو إلى اليوم يعمل واقفا على رجليه .. بعد أيام وجد نفسه مضطرا لفتح ثقب فى علامة تحت نتوء وسط سفح الجبل لا يستطيع الوصول إليه . وفهم لماذا يضطر العمال لربط أنفسهم فى حبال تتدلى من صخور بارزة فى أعلى الجبل ..

ليهبطوا إلى أمكنة لا يتسنى لهم الصعود إليها. عن يسار المحجر بمسافة غير قصيرة ، طريق يؤدى إلى رأس الجبل. . من هذا الطريق يصلون للصخور البارزة ، ويدلى الحجار الحبل بعد عقد طرفه بأحد الصخور ثم يهبط عليه حتى يصل لعلامته ، فيربط حزاماً فى وسطه بالحبل ويظل حر اليدين .

وتعلق إسماعيل بالحبل مراراً ، وجاسر يقود خطاه . . وأصبح لا يخشى موقفه بين السماء والنيل .

فى النهار أبو فودة حركة وفرقعة ودوى ، وفى الليل سكون وهواء يصفر . . فى ليلة مظلمة فى أوائل الشهر رأى أبو فودة جاسراً يعود إليه منفرداً فى قارب صغير . . ثم يتحسس خطاه ويقفز من حجر إلى حجر يحاول أن يصل لرأس الجبل من الطريق المرسوم ، ولكن رجليه — دائماً رجلاه — عاجزتان وحركتهما بطيئة ، فهو يسند نفسه كل حين وآخر بيده ، ويقف ينصت . فى لحظة خيل إليه أن الظلال حوله تتحرك إذا ضربها الهواء ... وتمالك نفسه ، يسير محنى الظهر تنفسه مسموع .لقيه على رأس الجبل هواء بارد ، يهب على وجهه فلا يؤثر فى الحمى التى تتملك جسمه ، العرق يتصبب من جبينه ، ولسانه جاف ، ، ،

ووقف جاسر عند صخرة ناتئة حولها حبل معقود ، ذيله الطويل يتدلى إلى سفح الجبل يكاد يصل إلى الماء . . تلمس موضع العقدة وشرع يزحزح الحبل إلى أن جاءت أمامه. .وأخذ يعمل فيها يديه . . ثم أسنانه حتى فكها . .

كل الحجارة يفهمون فى الحبال وطرق عقدها . . وكان جاسر أيام شبابه – أمهر العمال فى اصطناع العقد ، له عقدة يحدثها بين حبلين فى غمضة عين ، ومع ذلك يكتفى أن يقع على طرفها ضغط يسير حتى تقوى وتصبح كوثاق الحديد . . أليس هذا كل ما يعرفه .. بل كان ماهراً أيضاً فى اصطناع عقدة تظهر ملتوية ضخمة ، متداخلة ، لا يشك من يراها أنها تقاوم القناطير ، ثم يطلب من أحد الواقفين أن يجذب طرف الحبل على مهل ، فإذا بها تتفكك شيئاً فشيئاً ، وإذا بها أكبر الخدع .

أعاد جاسر لف الحبل على الصخرة ، وجلس بيدين مرتعشتين يعقد الطرفين عقدة لن تدهش المتفرجين هذه المرة ، بل ستستند عليها روح معلقة بين السماء والماء ، وسط أكوام الحجارة التى لا تلين إذا سقط عليها الجسم تلقفته بأسنانها ، تمزق أوصاله ، وتهشم رأسه فتاتاً . .

وعاد جاسر بقاربه وربطه حيث كان فى مؤخرة مركب كبيرة محملة قللا وبلاليص ، لحقها الليل أمام بنى شقير ، فركنت فى الموردة ، وكان أهلها فى نوم عميق ..

لم يغمض له جفن طول الليل . . جسمه يرتعش رعشه مكتومة .. الكلاب تعوى حوله ، وللديكه آذان كله نداء وتنبيه .

فى الصباح ، بعد ميعاده ، خرج من منزله لافا رأسه ومعظم وجهه فى لاسة من الصوف ، يقول لكل من يسأله – وهو فى خطو

المشلول — إنه مريض . بين جنبيه هوة إذا أطلت عليها نفسه لم تر إلا خوفاً ورعباً يحدقان فيها هو مريض ضعيف ولكنه قبل كل شيء يريد من ربطة اللاسة أن يخفي وجهه ويستر اصفراره واستقل المعدية معه عدد من الحجارة المتأخرين ، جلس بينهم متخاذلا ذاهلا عما حوله المناظر التي تبصرها عيناه تقع على مخ صدىء ، فلا يفهم منها شيئاً ..

وبدأ أبو فودة يتضح. كل يوم له ألف لسان من معول حديد يصدم به الحجر ولكنه الآن أخرس واجم.. وزاد من تساؤل ركاب المعدية أنهم رأوا عند ما اقتربوا ، جمعاً من الحجارة يجري من أعلى الجبل لأسفله . بعضهم يحرك ذراعيه ، وبعضهم يصرخ كالقرويين جميعا إذا أرادوا إسماع صوتهم لبعيد ، في صرخة طويلة مموجة تنتهي بعويل .

وقفز الجمع فاندس بينهم جاسر.. تلقفهم العمال بالخبر.. إسماعيل جاء كعادته ، وطلع للجبل وهبط على الحبل ليبيد أعمله ، وفجأة — وبدون سبب واضح — رأوه يهوى .. صرخ مرة واحدة ثم لم ينطق ... رقراق من الدم يسيل من طرف الفم على خده عين مسودة ، حاجبها مجروح ، وعين كبيرة جاحظة . . مر الرعب عليها وهو هارب فتلقفته منها يد الموت . . فهو فيها أسير مقيم .. وارتمى جاسر على الجثة يحضنها ويبكي .

— « آه . . آه يا ابن خالي » .

ونقلت الجثة — في المعدية ! — إلى بني شقير ، يألف النيل منذ الفراعنة ترجع الميت من أولاده على ظهره .. في الغرب المنازل ، وفي الشرق القبور . . ونزهته الوداع !

ووصل إلى عبد المسيح خبر موت إسماعيل ، فأسرع إلى محل الحادثة ، وكان الحبل لا يزال موجودا فأخذه بين يديه يقلب فيه .. يستمع لحديث حجار واقف وراءه .

— « هو لازم ما عرفش يعقد الحبل كويس .. ماتبهاش بالحبل » .

فقام عبد المسيح ينصرف .. لم يلتفت للحجارة . . وكأنه يهمس لنفسه لا ليسمعه قوله :

— « له رب . . . . » .

ومرت أيام طويلة . . ورأى الشقراوية كيف يطلب جاسر من حسين رمضان أن يحله من « فاتحة » ابنته ، لأنه لا يجد مفراً من أن يتزوج من أرملة ابن خاله . . المصيبة مصيبتها . . هى بحراوية . . فارقت بلدها وأهلها . . وليس لها عائل فى بنى شقير .

وضمهما منزل واحد . . فى لذة يعرفها أكثر الناس هى عندهم شىء يأتى ويذهب ، وهى فى نرجس وجاسر عنصر مقيم .. وارتوى جسمه على الغذاء الجديد .. فى أول الأمر أصابه ضعف شديد ، ثم انقلب إلى سمنه ، اختفت معها عظمتا خده ، وانتفخ شدقاه وظهر له كرش كبير . . وزاد إقباله على عرق البلح ، وكثرت فى الحبل حدته ، وبدأ العمال يتذمرون من محاولته ، فى غير مناسبة ، أن يتدخل فى مصالحهم والسيطرة عليهم ، وهو كسل لا يقوم بعمل .

. مر عليه شعلان ذات يوم وهو فى المحجر ، وتعمد أمام العمال جميعا أن يؤنبه على بعض إهماله . . وهدده بإخراجه من عمله إن لم يعتبر . . لم يجاوبه جاسر إلا بكلمات متقطعة . . ثم انتظر حتى اختفى الرجل وعاد إلى عمله . . هو جالس عند حافة المساء على حجر ضخم فى وسطه ثقب عميق ، بجانبه كيس بارود يتناول منه بحذر ويسكبه فى الثقب . . ثم ضحك :

— « يعنى عم شعلان فاكر رزقى فى إيده ؟ يعجبه أسيب الشغل وأروح نمرة ٩ ؟ أهم عاوزينى هناك . . »

وامتلأ الثقب إلى ثلثه . . فجاء جاسر بالقتيل وهو عصا من جريد مشبعة بمعجون البارود ، وركزه فى الثقب وسط كوم البارود ، وتناول من تراب ناعم بجانبه حفنة وألقاها حول الفتيلة .

— « انت ياواد ياعلوان — دقيت الحجر ده كويس ؟ أوع يكون فيه حصوه ؟ » .

جاءه الجواب من عامل معلق .

— « كله كويس . . أهو قدامك شوفه » .

ومد جاسر يده يكبس التراب حول الفتيلة . . ثم ترك الشغل ووقف : —

— « يبقى يشوف عم شعلان لما أسيبه الشغل يمشى إزاى ؟ »

ووصل التراب إلى حافة الحجر ، فأخذ جاسر عموداً قصيرا من الحديد وبدأ يكبس التراب بهدوء وبطء . . ثم تركه وعاد لحديثه من جديد . .

ــ « أنا ح أخاف من إيه ؟ مش عارف ان نص عمرى راح فى السجن ؟ دنا رد اللومان » .

وضغط بالعمود مرات قليلة حول الفتيلة البارزة :

ــ « أوعوابقا . . وردة . . وردة . . وردة ياواد يامحمود ، وردة ياحسين ، سيب الشغل دلوقتى ياعوض » . وأخرج من جيبه علبة كبريت . . وانحنى ظهره فوق الحجر . . ومال بوجهه على الفتيلة . . ثم أشعل العود ولمس بالنار عصا الجريد . . لم يسر اللهب بها . . لايزال عود الكبريت مشتعلا فى يده . . عيناه على رأس الفتيلة تراقبها . . واقتربت يده بالنار مرة أخرى . وفجأة قذف الحجر إلى وجهه فى دوى كز مجرة الوحش تراباً ولهيباً وذخاناً وباروداً محترقاً وغير محترق .. اختفى وجهه لحظة وسط الحمم . . ثم انقشع السحاب فإذا هو ملقى على الأرض . .

تجمع العمال عليه . . ليست الحادثة الأولى فى محجر أبو فودة . كم عامل قبله قاده سوء الحظ إلى إشعال لغم منفس وفقد روحه .. أو فقد شعره وجلده، وسكن البارود غير المحترق فى وجهه فى علامات أشبه بالجدرى . . وكم عامل تفحم أنفه . .

ولكن جاسر فقد عينيه . .

. . .

يعيش جاسر من إحسان الناس . . غير أنه لا يستطيع الابتعاد عن أبو فودة . فى الصباح المبكر يكون أول من يصل إلى المعدية ..

إذا سمع صوت الحجارة مقبلين ، قلب يده فى الهواء يريد أن يتشبث بواحد منهم . . كل يوم يعدى إلى المحجر . يرقد طول النهار تحت سفح الجبل يستمع لأصوات المعاول ولغم البارود .. لايزال لسانه « زفرا » ، بل ربما زادت شتائمة ولعناته . . يقبل لقمة « البتاو » تعطى إليه ، لا يحمد ولا يشكر . . هو زميل احتمله الحجارة بينهم فى عطف غير طائش أو ثرثار . . نصفه كرم ونصفه قسوة . كل من يحل بالمحجر يأسره منظر هذا الرجل السمين ، وجهه مبقع حواجبه من جلد وجروح ، عيناه كعينى البوم إذا أغمضهما . .

ووجد جاسر فى العصا ما يتوكأ عليه_ويساعده فى خطوه .. من كان يظن أن خطوة جاسر المترنحة وقدميه الثقيلتين نبوءة عجيبة بعماه ؟ مشيته هى هى لم تتغير . . ولكنها لا تستثير الآن فيمن يراه دهشة أو عجباً . . فليس أمامه إلا أعمى يتحسس لقدميه موضعاً . من أين له أن يعلم أن هذه المشية « دمغة » لا تزول أرث سجن طويل عاش فيه جاسر تربط رجليه الواحدة بالأخرى سلسلة قصيرة .. خمس عشرة سنة تتدفأ من حرارته .. هى عرق فى جسمه . . يكاد يجرى فيها دمه ×

× نشرت أبو فودة فى جريدة السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٣٠٢٧ ٣/٢/١٩٣٣ ، ص ١٤ ، ١٥ ملحق العدد ٣٠٥٧ ، ١١/٣/١٩٣٣ ص ٢٦ ، ٢٧

حياة نص

عندما انتظم حسنين ابراهيم فى سلك الخفراء بالقاهرة كان فخر الطابور بقامته المرتفعة وصدره العريض وذراعيه القويتين وجبهته وهى ملساء تلمع حياة وشباباً . وامتاز فوق ذلك بجرأته التى اكتسبها من قضاء لياليه منفرداً وسط الحقول لحراستها . وحببه إلى رفقائه أنه ذو حديث حلو يدل على معلومات واسعة وذكاء طبيعى صقلته المدينة وأبرزته .

وازدادت قيمته لديهم وكثر إعجابهم به عندما أذاع بينهم أحد أصدقائه قصة حدثه بها حسنين فى نشوة من نشوات الذكرى التى تدفع صاحبها إلى البوح بعاطفته فتغلبه وتغلب فيه حب التكتم

والانفراد . فعلموا أنه قروى نشأ بالريف وتربى وسط حقوله ولولا القدر لكان يرتدى اليوم بدل معطفه الخشن الأصفر جلباب الفلاح الأزرق الملطخ الحائل اللون . ولكان يقضى طول يومه محنى الظهر فوق فأسه بدل أن يظل الآن منتصب القامة معتمداً على نبوته الطويل . فأى شئ غير القدر هو الذى يرمى بالمرأة فى طريق الرجل فتخرجه من حياة إلى حياة أو تجعل منه شخصاً غير ما كان! قصته إذن قصة امرأة كانت مشهورة فى القرية بميلها إلى الرجال وقلة تورعها فى التحدث إليهم ومقا بلتهم وما لبثت أن انتقلت إلى البندر تحت ضغط الوسط الذى تعيش فيه لترتزق هناك من عرضها ... وهى نهاية محتومة لكل فتاة تستهين بشرفها فى الريف ، وإن هربت منها فإلى موت أكيد ؟

فهجر الفتى قريته ورحل إليها ، ثم ما لبثت أن جرته إلى العاصمة فهوى معها حيث استمر عاطلا زمناً غير قصير تلوق فيه فقر المدينة على خلاف ما كان يعهده من فقر الريف. ففلاحو القرية فقراء ولكن لا يمتاز بعضهم عن بعض . يسيرون جميعاً من حقلهم إلى دارهم كتفاً جنب كتف ، ولكنه فى المدينة فقير وسط أغنياء . يقطع المسافات الطويلة سعياً على قدميه ليصل إلى أحقر سقف يظلل إنسانا تحت سماء المدينة !

وظلت علاقته بالفتاة متصلة إلى أن أصابها شيء من الفتور .

ولو أن هذه الظروف أحاطت بغيره لا لتمس النجاة فى الرجوع إلى قريته ولكنه آثر البقاء فى المدينة إشفاقاً من خجل يزعم أنه يشعر به

إذا وجد نفسه مرة أخرى بين أهالى قريته وهم لا يعرفونه إلا بشهرته فى متابعة فتاة من بلد إلى بلد . وهذا عذر متتحل إذ لا شك فى أن السبب الحقيقى هو أنه سقط تحت تأثير المدينة . وقد استهوته بأنوارها ورفاهيتها . ومن لا يلتمس له العذر . وقد انتقل من أبسط وسط وأخشنه إلى مدينة يعتبر مجرد الوجود بها والسير فى طرقاتها لذة وتنعماً . والمدينة للقروى كالخمر للشارب تسحره وتأسره فينقلب عبداً ذليلا لها ويضع تحت قدميها حياته الوديعة الهادئة ليستبدل بها حياة محمومة مضطربة ولكن تتنابها بين حين وآخر نوبات سرور !
ولذلك قنع حسنين ابراهيم أن يكون خفيراً يتناول أول كل شهر اثنين من الجنيهات لا تقيم له أوداً ولا تجىء بكفاف زوج وطفلين (وأى عجب فى أن يعشق حسنين ابراهيم امرأة وهو متزوج من أخرى .. أليست زوجته نوعاً من المتاع لا قيمة له ولا تدخل فى حسابه ؟)

وكان من تأثير هذه الفئة أن أقر له زملاؤه بنوع من البطولة التى وإن كانوا ينكرونها جهاراً فهم يعجبون بها سراً ، ويتمنى أحدهم لو وقع له فى حياته ما وقع للبطل . ومن هنا كان أكثرهم يستشيره فى أموره وينتصح برأيه .

مرت عليه شهور إلى أن كان دركه فى شارع تجارى كبير . ولكنه شارع وطنى لا يلبث مؤذن العشاء أن يدعو الناس إلى الصلاة حتى يهرع أصحاب المحال التى به إلى تلبية ندائه ، فيغلقون أبوابها ،

فإذا قضوا الصلاة اتجهوا إلى منازلهم القريبة وكل منهم يحمل شيئاً من مأكل وفاكهة .

فإذا تقدم الليل أصبح الشارع مظلماً صامتاً لاحركة فيه . ترتعش فى أرجائه أضواء المصابيح إذا ضربها الهواء فترقص معها على الجدران أشباح سوداء غريبة .

فى وسط هذه الوحدة الموحشة قضى حسنين ابراهيم أياماً طويلة لا يشغله عمل واحد يستطيع أن يحصر فيه تفكيره لينجو بنفسه من قبضة. ملل يطحنه بقرنيه فيبعث إليه التأفف والسأم فى عمله وحياته .

وكان الشارع لديه فى أول الأمر شيئاً جديداً له بهجة كل جديد ولذته فشغل حسنين نفسه بدراسة الشارع دراسة دقيقة حتى ألفه وحفظه كما يحفظ المرتل أنشودة يتلوها عن ظهر قلب ولكن الاعتياد والتكرار أفقداه كل لذة وسلباه اهتمامه فأصبحت حياته بالشارع عملا يؤديه رغما عنه وهو غائب الذهن غير مبال أو مهتم به . ثم انتهى به السأم إلى أن اختار حجراً بالطريق يجلس عليه معظم الميل يسلى نفسه بتنظيف غطاء رأسه بكم معطفه ويفتل شاربه يميناً ويساراً ...

فكم من مرة قطع فيها الشارع سيراً وذهاباً وإياباً فاحصاً بنظره الأرض ، محدقاً فى أبواب المنازل مختبراً لأقفال المحال (حتى يطمئن على دركه) منصتاً للأصوات الهاتفة التى تخرج إليه من المنازل . ولقد كان يحدث أنه كان يقف أثناء سيره أو يسعى من أول الشارع إلى منزل ينصت بانتباه إلى مايصدر عنه من أصوات ...

وبذلك أصبحت حياته جزءاً من حياة الشارع ، يعلم كم حفرة تفسد استواء الطريق ، وموضع كل منها . اعتاد حسنين ابراهيم أن ينتظر بشعف كل ليلة رجلا يرجع إلى داره متأخراً ويجلس بجانب النافذة والغرفة مظلمة يدخن لفافة التبغ وهو يحدق فى السماء فكأنه بينه وبين هذا الرجل ميعاد فى كل ليلة ...

وإذا وقف بأول الطريق علم وهو بمكانه أى المنازل ينبعث منها صوت بكاء طفل صغير يصحبه صوت إمرأة تغنى له وهى تضرب ظهره ضربات تتزن مع نغمتها وتسمع بجلاء من الشارع . وأصبح لا يهتم عندما يسمع بعد منتصف كل ليلة صوت رجل مريض يتأوه ويتوجع ولا لأصوات المشادة والعراك بين رجل وامرأة فى منزل آخر .

وكم من مرة أبصت لطالب يستذكر دروسه فى أول الليل بصوت مرتفع حتى يأوى إلى فراشه بل أصبح ينظم أوقاته ويعلم بمرور الزمن بمميزات أوجدها لنفسه ، فعلامته على أن منتصف الليل قد مضى فتى قصير القامة يقبل إلى داره فى خطوات بطيئة ، واضعا يديه فى جيبى بنطلونه وحاملا فى تجويف ذراعه الأيسر رزمة ضخمة من الجرائد يسير ولفافته فى طرف فمه ، وطربوشه منحدر فوق جبهته ، وعيناه باحثتان عن شىء ضائع منه فى الأرض ويدله على اقتراب الفجر صوت جرس المنبه يدق من أحد المنازل فيستيقظ على صوته المزعج رجل يلبس قبقابه ثم يحول به فى أنحاء

منزله ثم يبتدىء فى تلاوة القرآن . وقلما كانت هذه المميزات والعلامات تخطىء معه .

. . .

فى ليلة من ليالى الشتاء الباردة التى يقر فيها الناس فى بيوتهم يتدفأون كان حسنين ابراهيم كعادته بالشارع ، هو وحده الذى لامأوى له من الأمطار الهاطلة والرياح الهوجاء ! وكان من عادته أن يتخذ من بروز بعض المنازل فى الطريق ستراً لهمن رذاذ المطر .

فى هذه الليلة وبعد انتصاف الليل بكثير لمح حسنين ابراهيم شخصاً يأتى من بعد تطوف برأسه هالة بيضاء يسير محنى الرأس والظهر وكأنه جسد بلا ذراعين فى مشية كمشية الرجل فقد شيئاً يبحث عنه باهتمام فى الأرض دون أن يقف فى سيره ، وكان هذا الشخص الغريب يسير بجانب الجدار ويتسكع قليلا بجانب أبواب المحال ، بل إنه رقف مرة أمام أحد الأبواب وأطال ، وعندما اقترب من حسنين ابراهيم ورآه نشط فى مشيته ، واستطاع حسنين أن يراه ويتبينه فإذا الهالة البيضاء (كوفية) يلفها الرجل حول رأسه ويغطى بها أذنيه وإذا هو قد لف ذراعيه واضعاً كفيه تحت ابطيه وانكمشت رقبته فمالت رأسه إلى صدره من تأثير البرد وطلبا للدفء الذى لايجلبه إليه ما يلبسه من لباس رقيق : ولما حاذى الخفير التفت إليه وبصوت أجش كأن صاحبه لم يتكلم منذ مدة قال (سلام عليكم) ثم أرغم نفسه على كحة ليسلك بها زوره ، فأجابه حسنين بشىء من الريبة (سلام) على

خلاف عادته إذا رد التحية فانه يقول (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ثم تبعه بنظره متمهلا حتى غاب الشخص عن نظره .

والواقع أن حسنين ابراهيم عندما طالت مدته بالشارع أعتاد أن يتفحص كل شخص جديد عر أمامه ليجد لنفسه مجالا جديداً تستريح عيناه بالنظر إليه وينشط فكره ويستفيق من رقاده وسأمه .

اعتاد حسنين ابراهيم أن يقصد إلى قهوة (حسن على) عصر كل يوم ليتناول (فنجال قهوة) أو (كوبة شاى) وفى اليوم التالى اتخذ مكانه المعتاد فإذا بجانبه شاب يلف رأسه بكوفية ... هو بعينه الذى لم يتنازل حسنين بالأمس أن يرد له التحية بمثلها ولا يزيد . ودار الحديث بينهما . وشرب حسنين ابراهيم الشاى (وجوزة تمباك حمى) على حسابه فربطتهما صداقة سريعة كالتى تنشأ عادة بين الجلاس فى الحانات والمنتديات . وكان الشاب حلو النكتة يحادثه عن النساء وعشيقاته وغزواته المتكررة فى المنازل فاعتقد حسنين أنه (جدع) من فتية الحى الذين لا يهمهم شىء ولا يقف فى سبيل تنفيذ رغباتهم مانع من الموانع .

وتكررت مقابلتهما كل ليلة . فتعرف حسنين بجميع أصدقاء (عبده) وشهرته (حماية) وهو لقب يتخذه لنفسه دلالة على أنه لا يخضع لحكم البوليس المصرى استهزاء به . وتطرفت الصداقة إلى درجة أن حسنين كان يصحب عبده فى زيارته لأصدقائه فى منازلهم ويجتهد ألا تفوته فرصة يجتمع فيها به .

وعندما دخل حسنين منزل (عبده) لأول مرة ذهل كثيراً لأنه رآه على تفاهة أثاثه ، مزوداً بأصناف كثيرة من البضائع ، ورأى

فى غرفة (أثواب البفتة) — و (مقاطع الشاش) ومقاطف البن وكميات كبيرة من السكر والصابون وأقراص الجبنة الرومى والفلمنك وعلب الحلوى والشكلاتة ، وعدداً وفيراً من الساعات وصفائح الزيت الصغيرة ، ثم لاحظ أن كل واحد من أصدقاء عبده يخرج من الزيارة حاملا صنفاً واحداً من هذه البضائع المكدسة لا يتعداه مهما تكررت زيارته فأم أحمد الدلالة تأخذ معها القماش وأبو النجا البقال بجهة السيدة سكينة يأخذ أصناف البقالة . أما الساعات فيأخذها شاب من الذين يبيعون (إنشا للجوابات . فوازير . حكايات . أغانى وروايات) يسافر بها إلا بلاد الريف فى أيام المواسم والموالد .

أخذت هذه المناظر والتجارب تمر أمام عينيه ولكن حسنين كان صامتا لا يرضى أن يصرح لنفسه باعتقاده فى مهنة هذا الصديق الجديد بل استمر صامتا متردداً . وحجته أنه لا يعنيه من هذا الأمر شىء . وإنه على (بر خليص) إذ مادام أنه بعيد عن الشبهة . فلا يهمه إذا كان (عبده) لصاً أم لا . ولذلك لم ينكص عن محادثة (عبده) فى أصناف القطع الحديدية اللازمة لفتح الأبواب (إذ رآه يملك عدداً وفيراً منها فأراه عبده الأصناف المختلفة ودله على أسمائها وكيفية استعمالها وأخيراً أخبره عن الأشخاص الذين يبيعون له هذه الأشياء كان حسنين يصغى إلى هذه التفاصيل بشغف وشوق وتنطبع ذكرى الأحاديث فى ذهنه بقوة وتأثير .

وأخيراً لم يفته أن يلاحظ أن (عبده) يخبىء فى ناحية من الغرفة

صندوقاً صغيراً به (تذاكر صفراء) يستهلكها بسرعة ولاحظ أيضاً أن أصناف البضائع تقل فتكثر التذاكر .

فإذا نفذ الكوكايين إمتلأ المنزل مرة أخرى بالبضائع !

النتيجة الطبيعية لمسلكه هذا أنه لم يدهش عندما سأله (عبده) ذات مساء (هل تحضر معنا هذه الليلة ؟)ولم يكن هذا السؤال يخطر على باله فصمت ثم (قال : لما نشوف)فتواعدا بالقهوة .

لم يدر نزاع كبير فى نفس حسنين ابراهيم وكانت حجته كحجته السابقة أنه مادام سيذهب متفرجاً فلا خوف عليه .

فيذهب وهو فى ملابسه العادية . . . . وكانت مأموريته أن يقف بأول الطريق حتى ينتهى عبده ورفيق له من كسر باب محل وسرقة ما به . وتم ذلك بكل سهولة ولأجل أن يكافىء (عبده) الخفير على خدمته أعطاه قرص جبن فقبله (مادام أنه لم يسرقه هو شخصياً)ثم كلفه أن يحمل الباقى من السكر والصابون إلى أبى النجا .

وفى طريقه إلى أبى النجا إنتهى به منطق كان يتعب رأسه قليلا إلى أن يعرج على منزله ، فيملأ خزانته من السكروالصابون ويذهب بالباقى إلى أبى النجا وهو يقول سراً (ابن الكلب ! هو دافع فيه فلوس . مادام حاجة بلاش !) .

حدث بعد ذلك أن انتقل حسنين ابراهيم إلى درك آخر تبع قسم يبعد عن قسمه الأول . ولا بد لنا أن نقول هنا أنه أكثر أخيراً من زياراته إلى عشيقته . وأطال فى سهره وأسرف فى شرب المسكر

حتى ركبه دين قليل دفعه كثيرا إلى التفكير . ولكن انتهى به الأمر إلى أن تقدم لرئيسه متمارضاً يطلب أجازة يوم فيسمح له بها . وعندما أقبل منتصف الليل سار حسنين ابراهيم متسللا حذراً إلى أن وصل إلى شارعه القديم الذى قضى فيه أياماً طويلة فعرفه حق المعرفة وحفظه عن ظهر قلب ، فعلم أقوى أقفاله وأضعفها ، وأوقات غفلة سكانه ويقظتهم . فعرج فى حارة صغيرة ليس بها إلا مخزن واحد يعلم عن صاحبه حداثة عهده بالتجارة . وأخرج من جيبه طفاشة من الحديد (ولو بحثت عن الوقت الذى اشترى فيه الطفاشة علمت أنه اشتراها منذ أن ابتدأ يعاود علاقته مع عشيقته) وبحركة بسيطة فتح باب المخزن .

وسار إلى منزله وجبينه مبلل بالعرق . وعندما أتى الصباح استطاع أن يقبض ثمن ما سرق من أم أحمد وأبى النجا ، وإن غبن فى السعر لحداثة عهده ولخوفه فى أول الأمر ولأنه لم يصبح بعد (قديم فى الكار)

وحدث بعد ذلك أنه كلما كان حسنين ابراهيم فى أجازة وقعت سرقة من سلسلة سرقات متشابهة متتالية فى هذا الشارع المطمئن الهادىء .... ومنذ ذلك الحين انقطع حسنين ابراهيم إذا كان فى (دركه) عن تنظيف غطاء رأسه وفتل شاربيه .

جريدة السياسة ، ١٩٢٦/١٢/١٠ ، ص ٣ .

قزوة ديمتري

هى غير خاصة ببلد دون بلد ، هى – إن شئت – (ماركة) لقهاو عديدة منتشرة بريف مصر شمالها وجنوبها . فى كل بلد صغير أو قرية كبيرة . إذ كلها تتشابه فى أن الذى يديرها رجل هو فى بلد – ديمترى وفى أخرى – مخالى – ولا يخرج اسمه عن أن يكون واحدا من هذه الأسماء - وما يشبهها من تودرى وخريستو أو ينى وخرالمبو ..

هى قهاو تحتل مكانها فى هدوء وسلم وتستمر فى نمائها من محافظة على التقاليد التى أوجدتها منذ نشأتها الأولى . معتمدة على وسط واحد لاتحيد عنه حتى تصبح مع الزمن خصيصة من خصائص هذا الوسط

وظاهرة كبيرة الأثر فى حياة الشعب المختلفة النواحى قد تعادل أهميتها أى ظاهرة أخرى .

وكذلك تجد كلمتنا (قهوة ديمترى) مجالا فى حديث الناس وحياتهم كما تلقاه ألفاظه قصيرة تؤدى معانى جمة كالنقطة والمركز والمحطة وعند العمدة ..... وأخيراً الكفر (١)

وفى كل بلد تمتاز (قهوة ديمترى) عن بقية القهاوى بنظافة مقاعدها ومناضدها ، وبهدوء جوها وخلوه من الضجيج وألفاظ السباب والمضاربات والمعارك . وبتكبرها عن تقديم (الجوزة) البلدية إلى زبائنها مستعيضة عنها (بالشيشة) التى يعتبرها الرأى العام أرقى من (الجوزة) تحت تأثير اندفاع الجمهور فى الزمن الماضى فى التشبه بعادات حكام الأتراك ، ومنها تدخين (الشبق) . فلم يستمر على استخدام (الجوزة) وهى مصرية صميمة - سوى الطبقة الدنيا ..

ولعل السبب فى نجاح قهوة ديمترى هى أن الذى يديرها رجل يونانى (ولكنه موصوف بالرومى لدى أهالى البلد تحقيراً لجنسية هذا المهاجر الغريب) .

تجرى فى دمه مهنة إدارة القهاوى بالوراثة من أب عن جد، والا فلماذا لا يستطيع محمود أو على أو حسن جيرانه الوطنيون تقليده . فها هم يرونه قد حجز المكان الذى يعد فيه طلبات الجلاس بستار خشبى رقيق بينما هم لا يزالون معتمدين على استعمال (الغلاية) ، ذلك

(١) لفظ يطلق فى الريف على مكان البغاء الرسمى .

البناء الحجرى الذى يضعونه فى ركن من أركان القهوة دون ستر والذى يعلو فوقه (البكرج) الأصفر الكبير المعد لغلى الماء للقهوة والشاى والزنجبيل فيرى الجالس إليه الماء القذر يجاور البكارج ويرى (المعلم) يغسل فنجاله فى ماء أسود عكر ثم يمسح يديه فى فى جلبابه القذر ، . ثم يسمع الخادم ينادى بطلبات الزبائن فى لهجة منكرة وألفاظ عامية مبتذلة من (واحد أزوزه . واحد جنزبيل واحد تمباك حمى .)

ثم يرى زبوناً بجانبه لم يفلح فى (شد الجوزة) فينادى الخادم فيتنفس فيها شهيقاً قوياً وينتهى من مأموريته بالبصق فى الأرض مرة ومرتين ...

وديمترى يستعمل كراسى مريحة بينما هم يصرون على هذه الدكك المتربة والمقاعد الخشبية ذات القش المجدولة ضفائره الخضراء والبيضاء

ولكن المهم فوق هذا أن ديمترى يقدم لزبائنه أنواع الخمور ويطبخ لهم دون غيره أكلا نظيفاً يتناولونه فى الظهر والعشاء . وليس هناك من قهوة غيرها يجد فيها الزبون (فيشا) للعب البوكر مع الاستعداد المطلوب من ورق أحمر وأزرق يتبادله كلما تأثر الورق بالاستعمال أو كلما أراد تغيير مجرى حظه .

لكل هذه المميزات أوجدت (قهوة ديمترى) لنفسها مركزا يكاد يكون شبيها بالرسمى لأن موظفى البلد لا يجدون لأنفسهم منتديا يقتلون فيه الوقت فى النهار وجانب من الليل ويكون فى الوقت نفسه

لاثقابهم سوى (قهوة ديمترى) فقد تجد حضرة العمدة ينصت لشكاوى الناس وهو فى مقعده المعتاد بالقهوة، وترى وجوها لاتألفها إلا من وراء مكاتب وأكوام الورق واللوسيهات بل تسمع نفس الحديث الذى يدور بين الموظفين فى محل عملهم وهو لا يخرج عن ترديد أخبار العلاوات والتنقلات وآخر أخبار فضائح الأصدقاء .

إذن هى فى الواقع محل مختار للموظفين يمثل أوقات راحتهم وسمرهم كما يمثل الديوان وقت عملهم ...

فحضرة العمدة فى عمامته التى تغطى نصف جبهته وبطنه البارز وعينيه الضعيفتين ينظر إلى كاتبه فى جلبابه وقلمه الموضوع جانب أذنه ويقول له دون أن يدير رأسه (لما يعوزنى حد أنا فى قهوة ديمترى)

وإذا وصلت لمعاون البوليس إشارة تلفونية فإن عسكرى المراسلة لا يجهد نفسه فى البحث عنه بل يتجه إلى قهوة ديمترى فيلقاه مجتمعاً بأصدقائه حول زجاجة جعه وأطباق المزة. فإذا تقدم إليه بالرسالة قطب المعاون جبينه واستعاذ بالله ثم خطفها منه حانقا . فإذا قرأها ردها إليه قائلا فى لهجة ملؤها الاستهتار (طيب روح .. بكرة) !.

وإذا انتقل إلى البلد موظف أعزب لاعنا وظيفته التى تجعله لا يتوطن فى مكان واحد وتجبره على تغيير أصدقاء واصطناع آخرين مرة بعد أخرى ، مشغولا مثقلا فى إعداد مسكنه الجديد وترتيب فراشه وقد تملكته حيرة ليست بالهينة ، كيف يجد لنفسه أكلا يسد به عن نفسه غائلة الجوع وهو لا يستطيع أن (يسلق بيضتين) كفاه إخوانه

الموظفون مؤونة هذا الجهد وقالوا له (عند ديمترى) ، فيذهب وقد يجلس فى مقعد للموظف الذى حل محله بالضبط وبذلك يكون زبائن الخواجة ديمترى وظائف لا أشخاص ، فيهم مثلا معاون الإدارة ومعاون البوليس ، وطبيب المركز ومساعد مهندس الرى . ولا يهمه بعد ذلك إذا كان أحدهم زكى أفندى أو عمر أفندى .
ويجد زبائن ديمترى عنده لأنفسهم حرية أوسع مما يلقاها القاهرى مثلا فى قهوته المعتادة ، حيث لامجال هناك للتعرف بكل من يرتاد القهوة مثله. ولعل هذا راجع إلى أن قهوة ديمترى صغيرة الحجم عدد زبائنها قليل ، بل وتربطهم معرفة خارجية مستقلة عنها . ولذلك نجد أحدهم لايتحرج إذا كان بمقعده فى جوار الباب أن يحادث شخصاً فى آخر القهوة بصوت مرتفع يسمعه كل الحاضرين .

ويرتقى ديمترى عن أن يكون (جرسونا) بسيطا كأى جرسون آخر فى مصر ، ويصبح نديما لزبائنه يهزءون بلهجته الرومية وبجنسيته تعصبا للأتراك ، ثم لا يتحرجون من أن يودعوه بعض أسرارهم ، وأن يقترض أحدهم منه إذا خسر (صولده) بأجمعه فى لعب البوكر إذا عثر به حظه .

إذن علمت بعد هذا كيف يستطيع ديمترى أن يجد رزقه فى البلد . إن الأهالى كالطفل يبذل النقود فى دمية يلهو بها ويتحكم فى حركاتها ويظهر قوة ساعده واستبداد ارادته بتهشيم رأسها . كذلك هم فى حاجة إلى شخص يهزءون به ولا يستطيع أن يهزأ بهم فتشعر

أنفسهم بأنها تتمتع فعلا بالمميزات الخليقة بجنسيتها والخاصة بطبقتها الإجتماعية ......

تقع قهوة ديمترى التى سأتخذها نموذجا لهذه القهاوى المتشابهة فى بلد صغير من بلاد مديرية الغربية يضمها النيل إلى صدره الرحيب غير حاقد على هؤلاء الناس الذين يشقون لجته و يمتطون ظهره بفلكهم سعياً إلى الأسواق فى المدن والقرى. ويغسلون أجسادهم ويزيلون صدأهم ثم بعد ذلك يهملون عبادته التى طالما ألفها من أجدادهم الأقدمين .

وديمترى طبعاً رجل يونانى لا ندرى متى جاء إلى مصر أو لماذا اختار هذا البلد دون سواه ، والظاهر أن لهؤلاء الناس قدرة على التشبث بمكانهم فى بلاد غربتهم لا يبرحون .

وهو رجل طيب القلب ، غير كبير المطامع به شىء من الغباوة الممزوجة بطيبة ، لا يزال رغم إقامته الطويلة فى مصر ينطق بكلماته فى لهجة رومية ، فإذا أنصت له زبائنه استغرقوا فى الضحك وطلبوا منه إعادة بعض كلمات يستعصى عليه نطقها ...

وديمترى قد أقبل على الشيخوخة فثقلت حركاته وقل نشاطه ، ولذلك فإن زوجته تساعده فى أعمال لا تنتقل بين الزبائن بل تظل مختفية وراء الستار الخشبى منهمكة فى إعداد (المتريو والميوليجى) فإذا مال ديمترى على الجالس يسأله ما طلبه أجابه (واحد متريو) فإنه ينادى بهذه الكلمة بصوت هادىء وبلهجة تختلف عن لهجات هؤلاء الجرسونات الذين يصرخون بطلبات الجلاس بكلمات يونانية

طويلة ذات وقع رنان ... أما دمترى فمادام ينادى زوجته فما حاجته للصريخ والأمر ؟ هو يكلمها كأنهما فى منزلهما كما يحدث الزوج زوجته فى شئونهما الخاصة .

. . . . . .

إذا أقبل (المغرب) تبتدىء الزبائن فى الاتجاه لقهوة دمترى وأول من يبكر فى الذهاب حضرة العمدة هربا من الانصات لشكاوى النساء وقضايا مضارباتهن . وكل واحدة تحلف برأسه وتهم بتقبيل رأس غريمتها ...

إذا رآه دمترى لم يسأله ما طلبه . بل ينطق بلفظ رومى فى لهجته المملوءة بالطيبة ثم يعود بعد هنيهة حاملا (شيشة) بللورية يدخن منها العمدة فيتوه فى أفكاره وهو ينصت لقرقرة الماء ثم ينفث الدخان من فمه ويحدق فى سحائبه شاعراً أنه يزيح بذلك عن صدره عبئاً ثقيلا .....

ثم يتلوه معاون الإدارة فينتحى ناحية سرعان ما يجتمع فيها معاون البوليس وطبيب المركز الذى يطلب عشاءه مبكرا ولا يرضى بغير (البيض المقلى) وقليل من الجبن . (وإلا فما قيمة نصائحه لجميع مرضاه — اتعش عشا خفيف ! فاهم !) — ثم يأتى حسن أفندى مكاتب إحدى الجرائد ينصيد أخبار الموالد والأفراح والمآتم ثم يقبل حسن سلامة .

وحسن سلامة رجل متوسط القامة قد بكرت ناصيته — التى لا يحجبها طربوشه المائل إلى الوراء فوق قمة رأسه — فى المشيب . وله

عينان (عسليتان) تبعثان إليك معانى كثيرة من الطيبة وهدوء النفس يعكره فى بعض الأحوال . ألم ظاهر إذا ضاقت به الحالة المالية . فهو يتاجر فى الملابس الداخلية . ثم يقوم لجمهور الموظفين والأهالى بقضاء جميع حاجاتهم التى لا توجد إلا فى طنطا والأسكندرية ، فيسافر لأحداهما كل يوم فى مقابل أن يقتضى منهم شيئاً زهيداً فوق الثمن ، ولذا فإن لحسن سلامة اشتراك فى السكة الحديد ومن هنا كان معروفا لدى أهالى البلد بلفظ واحد هو (الأبونيه ..) فيسأل أحدهم الآخر (هل رأيت الأبونيه ؟). وهو فوق هذا محبوب لايسبب لنفسه عند أحد الناس كراهية أو ضغينة .

إذا وصل (الأبونيه)الى قهوة (ديمترى)سلم على الجميع بصوت مرتفع فأجابوه بتحية باشة وقد يسمع من نواح كثيرة (أهلا وسهلا ياأبو على !)

ولا يستقر به المقام حتى يأتى له الخواجة ديمترى بالورق فيجلس أمامه رجل اعتاد أن يلعب معه كل ليلة . ويتحفز كلاهما للعب . وربما نشط بعض الحاضرين الى مشاركتهما فى لعبها فينضم لهما اثنان آخران مشهوران بمقدرتهما فى هذه اللعبة حتى يكون اللعب (حاميا) والنضال عنيفا .

يجلس الأربعة حول منضدة فى وسط القهوة وتحت (الكلوب) الوحيد بها . ثم يبتدىء سلامة فى تفنيط الورق بحركة سريعة تدل على خبرة تامة ثم (يفرقه)أربعة أربعة وهو يمازح من معه .

وفى أول الأمر يجذب (الأبونيه) بعض الحاضرين إلى مشاهدة اللعب فينقلون مقاعدهم ـ وراه وكلهم يتحزبون ضد خصمه، فإذا تقدم اللعب وعلا صوت (الأبونيه) من (انزل بالعشرة ... هات الدوه .. ياعين عليك ولد ابن حلال ... بصرة .) جذب معظم الحاضرين بالقهوة حتى تصبح بجلاسها متركزة على شخصية (الأبونيه) الذى يقود أبصار الحاضرين . وهم يتتبعون بشوق وشغف حركات إنسان عينيه فى دهشته العصبية وقد أخذته حدة اللعب وتدور على شفاهم ابتسامة خفيفة لا ينتبهون لها ولا تفارقهم طول الوقت ويختفى عندئذ لدى كل شخص متاعبه وآلامه .

بل وآماله وتنحصر حياته فى الوقت الراهن يقضيه فى لذة ونسيان .

إذا ساعد الحظ (الأبونيه) انقلب بالتأنيب والتبكيت على خصمه مكيلا له الاستهزاء والاحتقار (انت تعرف تلعب . مين اللى علمك . روح اتعلم ياشيخ .. ما بقاش الا نلاعب عيال ..)

وألفاظ الاستهزاء هذه ضرورية فى لعب الشرقيين كالتوابل فى طعامهم لا يحلو لهم بدونها ..

وأنت إذا دخلت إحدى المنتديات الكبرى بالقاهرة مثلا . وجدت معارك كبرى تدور داخلها فى صفين من الناس يجلس أحدهما قبال الآخر .. يلعبان (الطاولة) فكأن بينهما خصومة شديدة لا يكتفون بضجيجهم بل تحتم عليهم أصول اللعبة (أن ينقلوا الحجر) بقوة . وقد تجد أحدهم يرفع ذراعه إلى أعلى ثم يضع الحجر فى مكانه كأنه يدق

مسمارا . وإذا سرت بجانب صف منها سمعت ألفاظ الاستهزاء من واحد ووجدت وجوما من آخر بحسب ما إذا كان غالبا أو مغلوبا .

يظل (الأبونيه) فى مرحه ونشاطه وهو يكيل الاستهزاء لخصمه حتى يجد نفسه فجأة أمام (الأرض) وقد أتى عليه الدور فى اللعب وليس فى يده إلا ورقتان سبعة وعشرة... عند ذلك يتريث وينقل إحدى الورقتين مكان الأخرى عدة مرات ويكد ذهنه ليتذكر كم ورقة من العشرات أو السبعات (نزلت) فى الأرض .

ويرتعش إنسان عينيه فى رعشة عصبية حائرة ويأخذه الوجوم ويقلب نظره فى وجوه الحاضرين كأنه يستطلع فى نظراتهم قدره المحتوم .. سبعة أو عشرة ؟ هذه هى المعضلة الهائلة التى يرزح تحتها فكر (الأبونيه) . ولا شك أن دقات قلبه تزداد وأن الدم يتصاعد إلى رأسه مندفعا ... ذلك لأنه لا يلعب لقضاء الوقت بل اشباعا لشهوة التغلب على الغير . ثم هو لا يرضى لنفسه بالانهزام بعد أن طبقت شهرته أرجاء البلد . ولا يقبل أن يدور الحديث فى القهوة يومين متتاليين بذكر هزيمته المنكرة ....

وبحركة وجلة مستريبة يضع (الأبونيه) السبعة على المنضدة، وعندما يقفز خصمه من مقعده ويقبل ورقة فى يده بصوت مرتفع ثم يلقيها على المنضدة قائلا (بصرة !)

فينقلب الموقف . يصمت الأبونيه ويصفر وجهه وتقل قيمة ألعابه من الوجهة الفنية تحت تأثير الانهزام ويبتدىء خصمه فى إسماعه التبكيت

والاستهزاء قائلا (فالح جدا .... ومشطر من الصبح أبوه أستنى لما تغلب .. العب العب واحنا نشوف !!)

و (أبو على) يعد رجلا طيبا مجدا فى عمله لا يعرف رياضة واحدة ولو أن أحدا من الناس قال له : « إنك لا ترتاض كل ليلة بلعب (الورق) .. لما صدقه ، ولكن هذه رياضة تفيده فتجدد دمه وتنسيه همومه وتريح عقله وهو يقضى ، إذا كان مستريح البال والحظ ، وقتا طويلا فى اللعب وقد يلعب حسن سلامة عشر (عشرات) فى ليلة واحدة يخرج منها كلها غالباً لجميع المتطوعين لمقارعته !

. .

يصل بائع الجرائد فتتلقفها الأيدى . وهناك زبائن خاصة لها غرام شديد فى قراءة الجرائد وكل كلمه فيها ، فإذا قرأ أحدهم فى جريدته أمسك بتلابيب زميل له سىء الحظ فيسرد عليه كل الأخبار التى قرأها مع أن هذا الزميل البائس يكون قرأها مثله وعلم بها ولا حاجة لديه فى الاستماع لها . ولكنه لا يجد مخرجا من هذا الموقف الحرج سوى أن يسرد لغريمه بعد أن ينتهى من قصصه وأخباره كل المعلومات التى نسيها وقد يكرر ما قاله زميله وبذلك يكيل له بكيله .

وقد يتركان القهوة وجلاسها ويهيمان فى حل لغز من الألغاز التى هى بلاء الجرائد الأسبوعية هذه الأيام . فيقرأ أحدهم (ما هو اسم ثلاثى يدل على صفة من صفات العظماء ، فإذا قرأته مقلوبا فهو من مستلزمات الطعام)

فيخرج من جيبه قلما رصاصا — وهؤلاء الناس يحرصون على أقلامهم استعداداً لطوارىء الألغاز ! وعلى هامش الجريدة يكتب (١ - ٢ - ٣) ثم يتريث قليلا ويقول - قبل تبقى لبن ... فيكتب تحت الأرقام (ن . ب . ل) .

ثم يستمر (ثانيه وأوله وثالثه فعل بمعنى أرى بسرعة) فيقول (نبل ؟) ويكررها حسب الأوزان المختلفة تارة بالضم وأخرى بالجزم فلا تنفع معه . فينتقل إلى ناحية أخرى من هامش الجريدة ويعاود كتابة الأرقام من جديد ويكتب (ش . ر . ف) ويقول (شرف) !

وهو فى انهماكه نسى أن زميله يكد ذهنه بدوره فى اكتشاف هذا اللغز ويكون الحظ قد ساعده فيمسك ذراع الآخر وبصوت يكاد يبح يقول (آه ! حلم يبقى ملح وملح ...) ثم يرمى القلم ويريح طربوشه عن رأسه ويميل فى مقعده بينما يقلب زميله فى صحائف الجريدة محاولا بذلك اخفاء غيبته وقد امتلكه سرور وخيلاء وشعور بلذة الانتصار ..

(جريدة السياسة ١٩٢٦/١٢/٢٢ ص ٣)

مَنْ المجنون؟

نشأ محسن أفندى بن عبد المطلب بين عائلة شهيرة بذكاء أفرادها وحدة أذهانهم – وفى الوقت نفسه – بقصر أعمارهم ، فهم لا يتجاوزون تمام العقد الثالث حتى تذوب أجسادهم فجأة تحت تأثير خفى وبغير مرض معروف .

وكان يعيش وحيدا مع أمه العجوز ومعتمدا على ايراد صغير يمكنه – فى جهده وتقتير – من الاستمرار فى دراسته بمدرسة الهندسة

ومحسن شاب قارب الخامسة والعشرين طويل القامة ، ضامر البطن له جبهة مرتفعة فوقها شعر يضرب إلى الصفرة طويل الأنف دقيقها .

أما عيناه فواسعتان ، شديدة السواد والبريق لهما حركة سريعة تنبعث منهما كهرباء غريبة . وقد تختلج عينه فى بعض الأوقات إختلاجا عصبيا . وهذا فى أوقات غضبه وعندما تتملكه حيرة تضايقه ولعله كان أكثر فرد فى عائلته ذكاء ، وأشدهم توقدا فهو خفيف الروح ، حلو النكتة ، شهى الحديث ، يعلم عنه كل زملائه مهارته فى حل المسائل العويصة التى تستعصى عليهم ، دون أن يكد ذهنه من أجلها أو يتعمق فى التفكير . إذا رأيته لم تلبث أن تعترف بأن هناك قوة خفية توزع المواهب والعقول . وأن الشخص يولد فلما يجد نفسه معلق الذهن أو شعلة من بين نار وليس هو — على الحالتين — الذى أدار المفتاح أو ألهب الكبريت ، وليس فى مقدوره أن يفتح سجنه أو يطفىء ذكاءه .

. . .

بعد أن قال محسن شهادته بتفوق عين فى وظيفة بدمياط . وعندما حل بها وجد نفسه غريبا لا يعرف أحدا . ولكن سرعان ما التفت حوله القلوب فكثر أصدقاؤه وان بقى له شعوره بأنه لم يخلق ليعيش بدمياط وأن موطنه القاهرة ولا يرضى بغيرها بدلا .

وعندما أقبل شتاء دمياط ببرده القارص وأمطاره الغزيرة ، لم يقو جسم محسن على تحمل رطوبة الجو . فأصيب بحمى التيفوس فأقعدته الفراش وقتا طويلا انتابه فيه هذيان وغيبوبة طويلة ولكن شبابه تغلب على المرض فقام . فإذا هو شخص آخر غير ما كان . إذ قام نحيفا مهزولا يكاد ينكفىء إذا سار من شدة ضعفه . وترتجف ركبتاه

وترتعش يداه . وسواد عينيه ينطفىء فأصبحتا غائرتين وجفت شفتاه واصفر وجهه وانطبق شدقاه

وأصبح محسن — رغم أنه كان يسترد قواه شيئا فشيئا — شخصا سريع الملل لا يقوى على الانصات لحديث يطول وتفزعه أقل ضجة وتثير غضبه وتأففه

وكثيرا ما أطال التحديق فى الجو وهو تائه الذهن مشرده ثم ينهض ويتأوه بآهة يودعها تأففه وتبرمه من الحياة .. ثم يصبح فجأة — وبدون سبب واضح — شخصا ثرثارا كثير الضحك مرتفع الصوت عالى الضحكات .

ولعل أغرب ظاهرة بدت فيه أنه كان إذا تحدث ينتقل من موضوع إلى آخر دون ترابط أو سبب ودون أن يشعر هو بهذا الانتقال .

وأخذت هذه العوارض تزداد حدة حتى خطر لإخوانه الموظفين خاطر كتموه ولم يستطيعوا التصريح به لحبهم له وإشفاقهم عليه وأملا منهم أن يزول ما به بعد أن يسترد قواه وعافيته .

ولكن محسن تطرف فى أعماله وأصبحت له تصرفات شاذة .

إذ لما أتى وقت مساحة الأرض — وكان الزمن صيفا — رأى أنه من السخف أن يشتغل بالنهار فى هذا الحر الشديد ، وعزم على أن يكون عمله بالليل — فكان إذا أتى قرية أمر أهلها فخرج له كل من يملك

فانوسا وساروا معه وهو يمتطى صهوة حماره يغنى تارة ثم يخطب فيهم تارة أخرى .

ودعى مرة إلى الشهادة أمام المحكمة فى حادثة قتل وقعت أمامه فرأى الجمهور يدفعه بالمناكب فوقف قباله القضاه وأمام المحامين يسألونه أسئلة بدت له تافهة فتضايق وقطب جبينه . وأكد للمحكمة أنه رأى القاتل يضرب ، ولشد ما كانت دهشته عندما سمع القاضى ينطق بالبراءة . وعلم بعد ذلك أن القرار بنى على أن (حيث انه لم يقم على التهمة دليل راجح فأقوال الشاهد الأول (وهو محسن) متضاربة مضطربة وتعارضت مع أقوال الشاهد الثانى . . . وللذلك عندما أوى إلى منزله لم ينم وفكر طويلا فى هذه الحالة السيئة . وفى الصباح كان قد أتم خطابا مكونا من عشرين صفحة أوله (تقرير مرفوع من محسن عبد المطلب إلى معالى وزير الحقانية :شروع تعديل نصوص قانون العقوبات) و كان مما فكر فيه أن تكون الجلسات كلها سرية لأن الجمهور يحدث ضجة تشوش على القضاة وتثير أعصابهم دون أن يشعروا وتجعل أحكامهم مضطربة من تأثير الجو المملوء بالضجيج الذى يعيشون فيه وأن يمنع المحامون من عملهم لأنهم يقلبون الحقائق بألفاظهم وخطبهم الفارغة . وأن القضية إذا كان بها محام فلا بد أن يحترس القاضى منه ويراقبه ليعلم محاولاته فى التغرير به

وبعد أسبوع واحد إذ هو يمر فى بعض الأراضى المملوكة لوزارة الزراعة والأوقاف رأى النبات مريضا والاهمال ضاربا أطنابه فكاد

يمسك بتلابيب أحد الفلاحين يضربه . وسهر ليلة أخرى وفى الصباح كان قد أتم (تقرير مرفوع من ... إلى صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء بشأن إلغاء وزارتى الزراعة والأوقاف وإضافة عملهما إلى وزارة الحربية) .

وكتب (مذكرة ايضاحيه) قال فيها ان فى مظاهر الدولة المصرية متناقضات كثيرة . والجيش المصرى كافة من جنود وضباط لاعمل له لأن الغرض من الجيش الحرب ؛ وحيث اننا لن نحارب أحدا فلا لزوم للجيش ولا يبقى بعد ذلك مبرر لوجودهم وصرف مرتباتهم الطائلة وأكلهم مجاناً من خزينة الدولة ، ولذلك فإنه يجب تشغيلهم فى الأراضى البور وأراضى وزارتى الأوقاف والزراعة .

وقال فى فوائد هذا المشروع إن العزبة القذرة ستصبح معسكرا نظيفا وأن الخولى سيكون يوزباشى أنيقا ، وتنقلب المدافع بسهولة إلى محاريث ، وتصدر الأوامر إلى الفلاحين بالبورى من الخولى . وبذلك يسير العمل بانتظام ولا يهمل الفلاحون من الجنود فى عملهم لأن القانون العسكرى يطبق عليهم .

وعلى ذلك كانت المادة الأولى فى القانون هى :

المادة الأولى . تهدم جميع العزب الكائنة فى مصر سواء بالوجه البحرى أو القبلى لقذارتها وقلة الضوء فيها وكثرة البق والبراغيث، وتهدم جميع الثكنات العسكرية فى العاصمة والمدن وتنقل الحجارة والدبش

إلى أراضى وزارتى الزراعة والأوقاف ويبنى فى كل ألف فدان ثكنه واحدة . . .

المادة الثانية — يلغى القانون العسكرى الحالى ويستعاض عن جرائم التسليم للعدو والإهمال بحسن الضبط والربط بجرائم التأخير فى الحرث والرى والإهمال فى تنقية الدودة . .

المادة الثالثة — يكون فى كل ثكنة برج عال يقف فيه اليوزباشى الحولى ليصدر أوامره بالبورى إلى جماعة الجنود المنتشرين بالأرض . .

ثم لما رأى أنه صاحب مشروعين كبيرين قرر أنه يتم اقتراحاته فسهر ليلة أخرى وفى الصباح كان قد أتم « تقرير مرفوع إلى صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء بإلغاء المحاكم الشرعية وإضافة أعمالها إلى وزارة المعارف)

وملخص اقتراحه أنه يجب على كل رجل أعزب ، أو امرأة عزباء أن تقدم إقرارا بذلك إلى وزارة المعارف التى تعقد فى كل ستة شهور امتحانا للذكور وآخر للنساء فإذا ظهرت النتيجة أجبر الأول فى الناجحين لى تزوج الأولى من الناجحات والثانى من الثانية وهكذا ..

وقال إن من فوائد هذا المشروع القضاء الأخير على طائفة (الخاطبات) وأن الحظ سيخرج بتانا عن الزواج الذى يجب أن نصونه عن التلاعب الحاصل الآن . وأن التزاوج سيتم بين القرناء ولا يغبن أحد فى نصيبه فتقل الشكوى ، وينتج نسل منتظم يعتمد على وراثة صحيحة .

ولكنه بعد قليل لاحظ أن مشروعه ناقص فأرسل إلى رئيس الوزراء خطاب يكمل النقص وأخبره أن يجيز عقد ملحق للساقطين . وأن الذين يسقطون فى الملحق يوضعون تحت المراقبة ولا يسمح لهم بالسهر بعد السابعة مساء (هذه هى الطائفة التى يجب على الحكومة مراقبتها لأنها هى التى تعيث فساداً فى المنازل وتحرض النساء على الفجور وليست هى طائفة المتشردين الذين تهتم بهم الحكومة على حقارة شأنهم وتفاهة قيمتهم فتسخر لهم العمد والبوليس ليراقبوهم فى حركاتهم وسكناتهم)

وأخيرا كاد محسن أن ينقطع عن عمله . وسر لتغيبه هذا جميع الموظفين لأنهم وإن كانوا يشفقون عليه فإنهم أصبحوا يخافونه ويرتعبون من نظراته وحركاته . وكل الناس ترتعب من المجنون ولو كان أهدأ الناس وأطيبهم قلبا .

وكان محسن يمتطى جوادا له ويسير فى الأطيان ، وسواء ما كان مملوكا منها للحكومة أو للأفراد ، ويأمر الفلاحين الذين أصبحوا لا يهتمون به ولا بأوامره بأن يعتنوا بالأرض ، وكان من تأثير ذلك أنه أصبح يعتقد أنه هو المالك لهذه الأرض الشاسعة بل انه يمتاز على هذا المالك المتغيب بالقاهرة والذى لا يرى أملاكه إلا مرة واحده فى عمره ، بل بماذا يفترق هو عن المالك ؟ إنه يمتع نفسه بهواء الأرض ويسير فيها ويتعهدها وكل شخص يستطيع أن يكون أكبر مالك فى العالم إذا ارتفع عن سخافات الناس وترهاتهم فى اغتصاب الأرض

ورأى أن الأرض كلها إنما خلقت ليمتع بها . وكل شخص يستطيع أن يتمتع بها ولا يمنعه من ذلك قانون سخيف ورثناه عن جدودنا السارقين المغتصبين ...

ثم تملكه قلق شديد . ماذا يفعل بهذه الأطيان كلها ؟ .. وأخيرا قرر أن يهبها إلى طلبة مدرسة الهندسة لأنهم أحق الناس بتفهم مقاييس الأرض واتساعها . فكتب خطابا إلى ناظر المدرسة يخبره فيه بأنه عزم على أن يهب المدرسة كل أطيانه (البالغ قدرها ألف فدان بما فيها من المنازل والعزب والمخازن والاصطبلات والأجران والحاريث والطلمبات والمواشى من كافة أصنافها .....)

ولم ينتظر رداً . وبعد أسبوع واحد خطرت له هذه الفكرة من جديد لأنه نسى كتابة الخطاب الأول ونسى أنه فكر فيها من قبل . والغريب أن خطابه الثانى كان صورة تنطبق على خطابه الأول . كلمة أمام كلمة . وسطراً بسطر .

وكان بعد ذلك يرسل فى كل أسبوع خطابا بهذا المعنى إلى ناظر المدرسة .

— — —

لم يبق أمل فى شفائه . ولم يبق أمام رؤسائه إلا أن يخبروا الوزارة فى القاهرة فصرحت له بأجازة مرضية طويلة ، ، وأشارت بإرساله إلى مستشفى المجاذيب (بالأورنيك نمرة ...) ولما كلف رئيسه أحد

الموظفين بتبليغه هذا القرار امتنع ، وأبى كل موظف آخر أن يفاتح محسن فى هذا الموضوع ... من يجرؤ أن يذكر له سيرة مستشفى المجاذيب ؟

وأخذ محسن يزداد فى (تنكيته) مع الموظفين ويمازحهم ويصحب كل كلمة بلطمة منه على كتف محدثه ...

وكان قرار الجميع أن تنفيذ أمر الوزارة أصبح لا مفر منه ، بل يجب أن ينفذ بسرعة ..

وانتهز رئيسه (الذى كان لا يطمئن على نفسه طالما صوت محسن المرتفع يرن فى أذنيه) فرصة غيابه وجمع إخوانه معه وتشاوروا فى الأمر ولبثوا منعقدين ساعات طويلة قرروا بعدها أمراً وخرجوا وابتسامة صفراء لعينة لا يبعثها إلا الخوف تدور على شفاههم .

وفى اليوم التالى عندما جاء محسن طلبه رئيسه ، فلما دخل عنده أجلسه على مقعد وقال له (إننى أعلم أنك طيب القلب وتشفق على المساكين وأنا قررت أن أكلفك بمأمورية دقيقة وأرجو منك أن تكتمها ولا تذكرها لأحد كان !

هذه المأمورية هى أن زميلك المسكين داود أفندى أصيب بنوع من الهستريا . وقد كلفتنا الوزارة أن نرسله إلى مصر حتى يتسلمه مستشفى المجاذيب . ولكنى رأيت من عدم اللوق أن نفاتحه فى الموضوع صراحة وعزمت على أن أرجو منك لأجل خاطره وصداقتك له — أن تصحبه معك إلى مصر وفى المحطة ستجد عمال المستشفى فى انتظاره ..)

فقطب محسن – وسعل سعالا خفيفا وظهر التردد فى نظرته فاختلجت عينه ثم طفق يسأل رئيسه (وكانت يد الرئيس ترتعش أسئلة كثيرة .

– لم ألاحظ على داود أفندى شيئاً ؟

– هل جنونه هادىء ؟

– وماذا أفعل لو هاج منى فى الطريق ؟

ثم أصابه نوع من الذهول وكأنه يذكر أموراً بعيدة فى الماضى وهذا ما كان يدور فى ذهنه فعلا فإنه أخذ يجهد نفسه فى تذكر حوادث حصلت من داود أفندى . فتذكر أنه ذات يوم أوقف عمله وارتبك وسأل جميع الموظفين عن نظارته مع أنها فوق أنفه وعند ذلك وضع محسن ذراعه على حافة مكتب رئيسه وأسند رأسه عليها واندفع فى ضحكة عالية طويلة .. وكان الرئيس يرتعش وكاد يخرج من الغرفة لأن أعصابه اضطربت فجأة لدى سماعه هذه الضحكة .

ولما عاد محسن إلى مقعده ظهر الجد ومظاهر الاهتمام على وجهه وحركاته . فكانت أوامره (للحاجب) مملوءة قسوة وشدة . وأكثر من تعهد ربطة رقبته وطربوشه . ثم يرسل نظرات جانبية طويلة وتلمع عيناه بها ، إلى حيث يجلس داود أفندى . وأخذ يراقبه كيف يحرك رجله حركات صغيرة كمن يضبط نغما موسيقيا يغنيه سرا . ثم انتقل بجانبه فجأة ووضع يده على كتفه وقال له فى لهجة مملوءة بالطيبة .

– هل تحضر معى للفسحة بمصر ؟

– لماذا ؟ وما دخلك أنت فى ذلك ؟

فقال محسن وقد ظهر على وجهه المجهود الذى يبذله ليتقن (بلغه) وهو مجهود من يدارى عن المجنون اعتقاد محدثه فى جنونه. وهو ليس بالأمر السهل الهين فى نظر محسن .

– لا لشىء سوى أننى أعلم أنك لم تزر مصر منذ مدة طويلة وأننى مسافر هناك فأحببت أن نكون سويا ، فلماذا تغضب !

فزمجر داود أفندى ونظر له ثم قال :

– حسن .. ومتى ترغب أن تسافر ؟

– إذا أردت فالآن حالا .

نهض داود معه . فوضع محسن ذراعه فى ذراعه كجندى يقود مجرما وقبل أن يخرج من الغرفة أدار رأسه لباقى الموظفين ونظر لهم نظرة تنم عن شدة فرحه بانتصاره وسروره باتقان الحيلة وذكائه ومهارته.

– – –

جلسا ، أحدهما قبال الآخر فى القطار . لا تفارق نظرة محسن الدقيقة اللامعة حركات داود . فهو منتبه لأقل حركة تبدو منه . حاول داود أن ينظر من النافذة فمنعه محسن بقوله .

كن عاقلا معى ولا تنظر من النافذة . !

ثم تذكر أنه ارتكب بقوله هذا غلطة كبرى وأنب نفسه وراح يشرح لداود معنى كلمته من أنه من المجازفة أن ينظر المرء أثناء سير

القطار من النافذة ثم انزوى محسن فى ركن المقعد آسفا مغضبا من نفسه وهو يقول سراً : لن يجد أمامه شخصا غيرى يسوق جنونه عليه ...)

كان داود أفندى رجلا طيبا . رضى أن يلعب هذا الدور مع محسن لحبه إياه . ولكنه رغم تألمه الشديد لموقفه هذا كان يكتم ضحكات كثيرة ويحاذر ألا يلتقى نظره بنظر محسن حتى لا يتلمس به معانى السخط والاحتقار لأنه يلهو به ويلعب به كما يلعب الرجل بالطفل الصغير . فى حين أن محسن كان يعتقد أن داود يهرب بنظراته لأنه خائف منه وأن هذا الخوف دليل على جنونه .

. . .

وصل القطار إلى المحطة فقام محسن نشطا مسرورا لأن مأموريته انتهت بسلام وأسرع إلى القبض على ذراع داود قائلا له (الزحام شديد فلنكن سويا) ثم نزلا . فرأى محسن وجوها كثيبة تنظر اليه ومدت نحوه عشر أيد قوية وقبض عليه بينما كان داود مطلق السراح.. فى هذه اللحظة فقد محسن منطقه — ان كان له منطق وكادت رأسه تلتهب تحت تأثير فكرة واحدة (هل هؤلاء الناس كلهم مجانين فيقبضون على أنا ؟)

ولكنه أخذ يصرخ فجأة (المجنون أهو المجنون أهو ، مش أنا !)

فكان هذا أكبر دليل لدى جمهور المتفرجين وموظفى المستشفى على جنونه . ثم ألقوه فى عربة وسارت به وهو مقيد يبكى غيظا وحنقا ويصرخ (يامجانين يامجانين ! !) .

(جريدة السياسة ، ١٩٢٧/١/١٤ ص ٣) .

فهرس

(★) هذه القصص الثلاث تنشر فى هذه الطبعة لأول مرة .



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١١٤٠٥/١٩٩٣
I.S.B.N 977-01-3632-8

٣٠٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب